دمعة وابتسامة

تأليف

جبران خليل جبران

يطلب من

مكتبة الهلال

بشارع الفجالة بمصر

مطبعة رعمسيس ، ٤١ بالظاهر بمصر

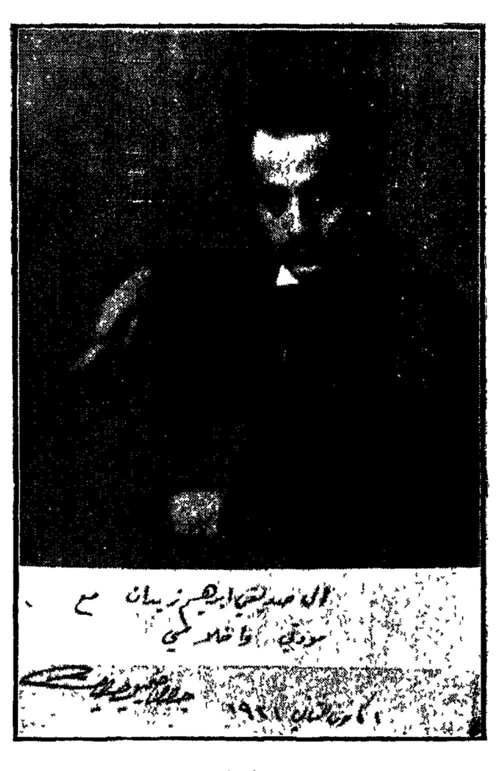
دمعة وابتسامة

الى

M. E. H.

أقدم هذا الكتاب، وهو أول نسمة من عاصفة حياتي
الى الروح النبيلة التي تحب النسمات وتسير مع العواصف

جبران



جبران خليل جبران

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران فى الأعوام العشرة الأخيرة من ربيع الحياة الى صيفها ، فنمت أميـاله ونضجت أفـكاره ، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعرى إلى عالم أسمى وأوسع يتعانق فيه الخيـال المطلق والحقيقة المجردة ، وتلتقى فى جنباته أشباح العواطف الدقيقة بجبابرة المبادىء الأساسية الصحيحة .

جبران اليوم ليس بجبران الأمس ؛ فالشاب الحساس الذى كتب « دمعة وابتسامة » بقـلم محبر بالدمع قد تحول الى رجل قوى يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء . والفرق بين مقالة « جمال الموت » وحكاية « حفار القبور » هو الفرق بين جبران الأمس وجبران اليوم ، فالنفس اللطيفة التى كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد تشددت بالعزم فلم تعد تهتز إلا للعواصف ، فالعواصف هى من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه

ولـكن لو تمعنـا ملياً بمجموع كتـابات جبران و تآليفه ، وعلاقتها بالنهضة الأدبية الحديثة، لوجدنا أن « لدمعة وابتسامة» مقاماً خاصاً بها لانها كانت أول نغمة من نوعها فى العالم العربي،

فقد خالفت بما فيها من التراكيب ودقة البيان كل ما جاء قبلها من الكتابات ، لانها أتت كتوطئة لحركة عربية جديدة يشعر بها و يتأثر لها الطالب فى مدرسته والمتأدب فى مكتبته والصحافى فى إدارته .

عند ما ظهرت « دمعة وابتسامة » كان الكتاب والشعراء فى مصر وسوريا والمهجر يملأون الصحف والمجلات بمقالات ورسائل وقصائد عقيمة بليدة خالية من الشعور بعيدة عن القلب ، وكان أكثر الناس يحسبون كل من وزن الكلام شاعراً وكل من رتب الفقرات كاتباً . ولكن لما ابتدأ جبران بنشر « دمعة وابتسامة » غير الناس أفكارهم وعلموا للمرة الأولى أن الشاعر الحقيقى هو الذى يضرب بأصابعه السحرية على أوتار قلوبهم و يعيد على مسامعهم فى اليقظة ما تسمعه أرواحهم فى المنام . ومن ذلك الحين ابتدأ فتيان الكتاب والشعراء بتقليد « دمعة وابتسامة » والنسج على منوالها فلم يمر عامان أو ثلاثة على ظهورها حتى كان لجبران تلاميذ وأتباع منتشرون فى كل مكان من العالم العربى

عند ما طلبنا إلى جبران جمع « دمعة وابتسامة » ونشرها فى كتاب أجابنا ببيت من أحد موشحاته قائلا :

« ذاك عهد من حياتى قد مضى   بين تشبيب وشكوى ونواح »

فقلنا له « ذاك عهد من حياتك قد مضى ، ولكنه لم يزل حاضراً فى حياة محبيك ومريديك »

فاجابنا « أن الشاب الذى كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودفن فى وادى الأحلام فلماذا تريدون نبش قبره ؟ »

فقلنا له « أن ذلك الشاب قد ترنم بأغنية علوية قبل أن يموت وعلينا أن نحفظ تلك الأغنية كيلا تتلاعب بها أيدى الضياع »

فاجابنا « افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت فى جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ويميل الى الهدم ميله إلى البناء فهو صديق الناس وعدوهم فى وقت واحد »

فقلنا له « سوف لا ننسى وان حاولنا التناسى ففى « حفار القبور » ما ينبهنا ويذكرنا »

نسيب عريضه

نيويورك فى ٢٤ نيسان « افريل » سنة ١٩١٤

دمعة وابتسامة

توطئة

* * *

أنا لا أبدل أحزان قلبي بأفراح الناس ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكا . أتمنى أن تبقى حياتي دمعة وابتسامة . دمعة تطهر قلبي وتفهمني أسرار الحياة وغوامضها ، وابتسامة تدنيني من أبناء بجدتي وتكون رمز تمجيدي الآلهة — دمعة أشارك بها منسحقي القلب وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي .

أريد أن أموت شوقاً ولا أحيا مللا . أريد أن تكون في أعماق نفسي مجاعة للحب والجمال لأني نظرت فرأيت المستكفئين أشقى الناس وأقربهم من المادة ، وأصغيت فسمعت تنهدات المشتاق المتمني أعذب من رنات المثاني والمثالث .

يأتي المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها وعند ما يأتي الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس ، فحياة الازهار شوق ووصال — دمعة وابتسامة .

تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والأودية حتى إذا ما لاقت نسمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت الى الجداول ورجعت الى البحر موطنها. حياة الغيوم فراق ولقاء — دمع وابتسامة.

كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الافراح فتلتقي بنسمات الموت فترجع الى حيث كانت : الى بحر المحبة والجمال . الى الله . . .

حياة الحب

— الربيع —

هلمى يامحبوبتى نمشى بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت فى الاودية والمنحدرات . سيرى معى لنتتبع آثار أقدام الربيع فى الحقل البعيد . تعالى لنصعد الى أعالى الربى ونتأمل فى تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكتست به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس فى ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة أغنية الفرح ، وانبثقت الازهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر ،

تعالى لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا بأغانى العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبىء البنفسج وتتبادل قبلات المحبة .

— الصيف —

هيا بنا الى الحقل ياحبيبتى فقد جاءت أيام الحصـاد وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالى قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا . وجماعة النمل فتأخذ أرضـنا. هلمى نجن ثمار الارض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التى زرعتها المحبة فى أعماق قلبينا . ونملأ المخـاز ن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة أهراء عواطفنا .
هلمى يارفيقتى نفترش الاعشاب ونلتحف السماء ونوسـد رأسينا بضغث من القش الناعم فنرتاح من عمـل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادى .

— الخريف —

لنذهب الى الكرمـة يا محبوبتى ونعصر العنب ونوعيـه فى الاجران مثلما توعى النفس حكمة الأجيال ونجمع الأثمار اليابسة ونستقطر الازهار ونستعيض عن العين بالاثر .
لنرجع نحو المساكن فقد اصفرت أوراق الأشجار

ونثرها الهواء كأنه يريد أن يكفن بها أزهاراً قضت لوعة عند ما ودعها الصيف . تعالى فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها أنس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقي الدموع على أديم التراب

لنرجع ! فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحها ، والطلول خلعت باهى أثوابها . تعالى يامحبوبتي ، فالطبيعة قد راودها النعاس فامست تودع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثرة .

— الشتاء —

إقتربي ياشريكة حياتى ، إقتربي منى ولا تدعى أنفاس الثلوج تفصل جسمينا . اجلسى بجانبى أمام هذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثيني بمآتى الأجيال ؛ فآذانى قد تعبت من تاوه الارياح وندب العناصر . أوصدى الأبواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسى والنظر الى المدينة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج يدمي قلبى . . . أسقى السراج زيتاً ، يارفيقة عمرى ، فقد أوشك أن ينطفىء ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما كتبته الليالى على وجهك . . . ايتى بجرة الخمر لنشرب ونذكر أيام العصر

إقتربى :— إقتربى منى ياحبيبة نفسى فقد خمدت النار

وكاد الرماد يخفيها . . . ضميني فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة . . . هاقد أثقلت أعيننا خمرة السنين . . . ارمقيني بعين كحلها النعاس . . . عانقيني قبل أن يعانقنا الكرى . . . قبليني فالثلج قد تغلب على كل شيء الا قبلتك . . . آه ياحبيبتي ماأعمق بحر النوم . آه ماأبعد الصباح . . . في هذا العالم

حكاية

* * *

على ضفة ذلك النهر ، فى ظل أشجار الجوز والصفصاف جلس ابن زرّاع يتأمل فى المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى ربى بين الحقول حيث يتكلم كل شيء عن الحب . حيث الاغصان تتعانق ، والازهار تتمايل ، والطيور تتشبب . حيث الطبيعة بأسرها تكرز بالروح . ابن عشرين رأى بالامس على الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فأحبها ، ثم علم انها ابنة الامير فلام قلبه وشكى نفسه الى نفسه ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعذل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والانسان بين قلبه ونفسه كغصن لين فى مهب ريح الجنوب وريح الشمال

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة

الاقحوان ، ثم سمع الهزار يناجي الشحرور فبكى لوحدته وانفراده ، ثم مرت ساعات حبه أمام عينيه مرور الاشباح فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

— « هوذا الحب يستهزىء بى . هاقد جعلنى سخرية وقادنى الى حيث الآمال تعد عيوباً والأمانى — مذلة . الحب الذى عبدته قد رفع قلبي الى قصر الامير وخفض منزلتى الى كوخ الزارع وسار بنفسى الى جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع . . . أنا طائع أيها الحب فما ذا تريد ؟ قد اتبعتك على سبل نارية فلذعنى اللهيب . قد فتحت عينى فلم أرَ غير الظلمة ، وأطلقت لسانى فلم أتكلم بغير الأسى . قد عانقنى الشوق أيها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبل الحبيب . أنا ضعيف أيها الحب فلمَ تخاصمنى وأنت القوى ؟ لماذا تظلمنى وأنت العادل وأنا البرىء ، لماذا تذلنى ولم يكن غيرك ناصرى ؟ لماذا تتخلى عنى وأنت موجدى ؟ ان جرى دمى بغير مشيئتك فأهرقه ، وان تحركت قدماى على غير طرقك فشلها — افعل مشيئتك بهذا الجسد وخل نفسى تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحيك . . . الجداول تسير الى حبيبها البحر ، والازهار تبتسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادى . وأنا وبي ما لا تعرفه الجداول ولا تسمع به الازهار ولا تدركه الغيوم قد رأيتنى وحيداً فى محبتى منفرداً فى غرامى بعيداً عن

التى لاتريدنى جنـدياً فى كتائب أبيهـا ولا ترضاني خادماً فى قصرها »

وسكت الفتى هنيهة كأنه يريد أن يتعلم الكلام من خرير النهر وحفيف أوراق الغصون ثم عاد فقال:

ـــ « وأنت يامن أخاف من اسمها أن أدعوها باسمها ، أيتهـا المحجوبة عنى بستائر العظمة وجدران الجلال ، أيتها الحورية التى لا أطمع بلقـائها إلا فى الأبدية حيث المساواة ، يامن تطيعها الصوارم وتنحنى أمامها الرقاب وتنفتح لها الخزائن والمساجـد ! قد ملكتِ قلباً قدسه الحب واستعبدتِ نفساً شرفها الله وخلبتِ عقلا كان بالأمس حراً بحرية هذه الحقول فصار اليوم أسيراً بقيود هــــذا الغرام . رأيتكِ أيتها الجميـلة فعرفت سبب مجيئى إلى هذا العالم ، ولمـا عرفت رفعة منزلتك ونظرت إلى حقارتى علمت أن للآلهة أسراراً لا يعرفهـا الانسان وسبلا تذهب بالأرواح إلى حيث المحبة تقضى بغير الشرائع البشرية . أيقنت لما نظرت إلى عينيك أن هـذه الحياة فردوس بابه القلب البشرى، ولما رأيت شرفك وذلى يتصارعان صراع مارد ورئبال علمت أن هـذه الارض لم تعد وطناً لى . ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك ، كالوردة بين الرياحين، أن عروس أحلامى قد تجسدت وصارت بشراً مثلي، ولما تخبرت

مجد أبيك وجدت أن دون اجتناء الورد أشوا كا تدمي الأصابع، وأن ما تجمعه الأحلام تفرقه اليقظة ... »

وقام إذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجنـاح ، كسير القلب ، مجسما الأسى والقنوط بهذه الـكلمات :

— « تعال ياموت وانقـذنى، فالارض التى تخنق أشوا كها أزهارها لا تصلح للسكن . تلم وخاصنى م أيام تخلع الحب، عن كرسى مجـده وتقيم الشرف العالمى مكانه . خاصنى ياموت ! فالأبدية أجدر بلقاء المحبين من هذا العالم . هناك ياموت انتظر حبيتى وهناك أجتمع بها »

بلغ الينبوع وقد جاء المساء وأخـذت الشمس تلم وشاحها الذهبي عن الحقـل فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئتـه أقدام ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صـــدره كأنه يمنع قلبه عن الخروج

فى تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبيـة تجر أذيالها على الأعشاب و وقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه ، فنظر اليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس، فرأى إبنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عند ما رأى العليقة مشتعلة أمامه ، ولما أراد الـكلام أرتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيه راشفة المدامع السخينة وقالت بصوت ألطف من نغمة الناى :

— « قد رأيتك ياحبيبى فى أحلامى ونظرت وجهك فى وحدتى وانقطاعى فأنت رفيق نفسى الذى فقدته ونصفى الجميل الذى انفصلت عنه عند ما حكم علي بالمجيء الى هذا العالم . قد جئت سراً ياحبيبى لالتقى بك وها أنت الآن بين ذراعى ، فلا تجزع ! قد تركت مجد والدى لاتبعك الى أقاصى الارض وأشرب معك كأس الحياة والموت . قم ياحبيبى فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان »

ومشى الحبيبان بين الاشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الامير ولا أشباح الظلمة

هناك فى أطراف البلاد عثر رواد الامير على هيكلين بشريين فى عنق أحدهما قلادة ذهبية وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات

« قد جمعنا الحب فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا ؟ »

في مدينة الاموات

* * *

تملصت بالامس من غوغاء المدينة وخرجت أمشي في الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها . فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد في أعمال الانسان فوجدت أكثرها عناء ، فحاولت في قلبي ألا أفتكر بما صنعه ابن آدم ، وحولت عيني نحو الحقل كرسي مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة بأشجار السرو

هناك بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات جلست أفكر — أفكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه ، وفي السكينة السائدة والهدوء المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الاخرى تراب في تراب تقلب

الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً وكل ذلك يتم في سكينة الليل

بينا انا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلفت ناظرى جمع غفير يسير الهويناء تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو ألحاناً محزنة . موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال النـاس . جنازة غني قوي . رفات ميت تتبعها الأحيـاء وهم يبكون ويولولون ويبثون بالهواء الصراخ والعويل

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهـان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون ينفخون الأبواق وبعد قليل انبرى الخطباء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام ، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني، وكل ذلك كان يتم بتطويل ممل . وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفارون والمهندسون وحوله أكاليل الأزهار المنمقة بأيدي المتفننين

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفكر ، ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت خيالات الصخور والأشجار وأخذت الطبيعة تخلع أثواب النور

في تلك الدقيقـة نظرت فرأيت رجلين يقـلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدي أطماراً بالية وهي حامـلة على منكبيها طفلا رضيعاً وبجانبها كلب ينظر اليها تارة والى التابوت أخرى — جنـازة فقير حقير وراءها زوجـة تذرف دموع

الأسى ، وطفل يبكى لبكاء أمه وكلب أمين يسير وفى مسيره حزن وكآبة

وصل هؤلاء الى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة فى زاوية بعيدة عن الاجداث الرخامية ، ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصرى وراء الاشجار

فالتفت إذ ذاك نحو مدينةالأحياء وقلت فى نفسى : — تلك للأغنياء الأقوياء . ثم نحو مدينة الأموات وقلت : — هذه للاغنياء الاقوياء . فأين موطن الفقير الضعيف يارب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة . وسمعت صوتاً من داخلى يقول ... هناك .



موت الشاعر حياته

***

خيم الليل بجنحه فوق المدينـــة وألبسها الثلج ثوباً وهزم البرد ابن آدم من الأسواق فاختبأ فى أوكاره. وقامت الأرياح تتأوه بين المسا كن كثؤبن وقف بين القبور الرخاميـة يرثى فريسة الموت

وكانـ فى أطراف الأحياء بيت حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك أن يسقط ، وفى إحدى زوايا ذلك البيت فراش بال عليـه محتضر ينظر الى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى فى ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصـار ينتظر المنية وعلى وجهه المصفر نور الامل وعلى شفتيه ابتسامة محزنة . شاعر جاء ليفرح قلب الانسـان بأقواله الجميلة يموت جوعاً فى مدينـة الاحياء الاغنياء . نفس شريفـة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عـذبة تودع دنيانا قبل أن تبتسم لها الانسـانية . منازع يلفظ أنفاسـه الاخيرة

وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته وأوراق عليها خيالات روحه اللطيفة

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ورفع يديه نحو العلاء وحرك أجفانه الذابلة كأنه يريد أن يخرق بنظراته الاخيرة سقف ذلك الكوخ البالى ليرى النجوم من وراء الغيوم ثم قال :

« تعالى أيتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسى. اقتربى وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرها . تعالى إلى ياأيتها المنية الحلوة وانقذينى من بين البشر الذين يحسبونى غريباً عنهم لانى أترجم ما أسمعه من الملائكة الى لغة البشر . اسرعى نحوى فقد تخلى عنى الانسان وطرحنى فى زوايا النسيان لانى لم أكن طامعاً بالمال نظيره ولا باستخدام من هو أضعف منى . تعالى إلى أيتها المنية العذبة وخذينى فأولاد بجدتى لا يحتاجوننى . ضمينى إلى صدرك المملوء محبة . قبلي شفتى التى لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الاخت ولا لثمت ثغر المحبوبة. اسرعى وعانقيى ياحبيبتى المنية

انتصب إذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشرى ترتدى ثوباً ناصعاً كالثلج وتحمل بيدها

أكليل زنابق من نبت الحقول العلوية . ثم دنت منه وعانقتـه وأغمضت عينيه كى يراها بعين نفسه . وقبلت شفتيه قبلةمحبةـــ قبلة تركت على شفتيه ابتسامة اكتفاء .

فى تلك الدقيقـة أصبح ذلك البيت خالياً الا من التراب وبعض أوراق منثورة فى زوايا الظلمة

مرت الاجيال وسكان تلك المدينة غرقى فى سبات الجحود والاهمال ، ولما استفاقوا ورأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالا عظيما فى وسط الساحة العمومية وعيدوا له فى كل عام عيداً . . . آه ما أجهل الانسان !

بنات البحر

***

فى أعماق البحر الذى يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس — هنالك فى الاعماق حيث الدر الكثير جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن اليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن بأصوات موسيقية . حديثاً سمعته اللجة فحملته الامواج الى الشواطىء فجاء به النسيم الى نفسى .

قالت واحدة : — «هذا بشرى هبط بالامس اذ كان البحر حانقاً »

فقالت الثانية : — « لم يكن البحر حانقاً ولكن الانسان — وهو الذى يدعى بأنه من سلالة الآلهة — كان فى حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزياً وهذا البشرى هو قتيل الحرب . »

فقالت الثالثة : — « لا أدرى ما هى الحرب ولكنى أعلم أن الانسان بعد أن تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على

البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب فدرى نبتون إله البحار وغضب من هـــذا التعدى فلم ير الانسان بدأ اذ ذاك من ارضاء مليكنا بالذبائح والهدايا . فالأشلاء التى رأيناها بالأمس هابطة هى آخر تقدمة من الانســان الى نبتون العظيم »

قالت الرابعة : — « ما أعظم نبتون ولـكن ما أقسى قلبـــه . لو كنت أنا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالى لنرى جثة هذا الشاب فربما أفادتنا شيئاً عن طائفة البشر »

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن فى جيوب أثوابه فعثرن على رسالة فى الثوب الملاصق قلبه فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

ياحبيبى ! — ها قد انتصف الليـل وأنا ساهرة وليس لى مسـل غير دموعى ولا معز ســوى أملي برجوعك إلى من بين مخالب الحرب ، ولا أقدر أن أتكر إلا بما قلته لى عند الوداع بأن عند كل انسان أمانة من الدمع لا بد من ردها يوماً . . . لاأدرى ياحبيبىماذا أكتب بل أترك نفسى تسيل على الورق. نفس يعذبها الشقاء ويعزيهـــا الحب الذى يجعل الالم لذة والاحزان مسرة . لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين يجرل فيهما روح واحدة نادتك الحرب فاتبعتهـــا

مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذى يفرق المحبين ويرمل النساء و ييتم الاطفال ؟ ما هذه الوطنية التى من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروى المسكين والذى لا يحفل به القوى وابن الشرف الموروث ؟ اذا كان الواجب ينفى السلم من بين الامم ، والوطنية تزعج سكينة حياة الانسان، فسلام على الواجب والوطنية .... لا لا ياحبيبى ، لا تحفل بكلامى بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ولا تسمع كلام ابنة أعماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق ... اذا كان الحب لا يرجعك إلى فى هذه الحياة فالحب يضمنى اليك فى الحياة الآتية »

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ولما بعدن قالت واحدة منهن : —

« ان قلب الانسان أقسى من قلب نبتون »



النفس

***

. . . وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً

وأعطاها رقة نسيمات السحر وعطر ازاهر الحقل ولطف نور القمر

ووهبها كأس سرور وقال : — لن تشربى منها الا اذا نسيت الماضى ، وأهملت الآتى ، وكأس حزن وقال :— تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة

وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء ، وحلاوة تخرج منها مع اول كلمة ترفع

وأسقط عليها علماً من السماء ليرشدها الى سبل الحق

ووضع فى أعماقها بصيرة ترى ما لا يرى

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الاشباح

وألبسها ثوب شــوق حاكته الملائكة من تموجات قوس القزح

ثم وضع فيها ظلمة الحيرة وهى خيال النور

وأخذ الاله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل ، ورملاً من على شـاطىء بحر الانانية ، وتراباً من تحت أقدام الدهور وجبل الانسان

وأعطاه قوة عميــاء تثور عند الجنون وتخمــد أمام الشهوات

ثم وضع فيه الحياة وهى خيال الموت

وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لاحد لها ولا مدى وجمع بين الانسان ونفسه



ابتسامة ودمعة

***

لمت الشمس اذيالها عن تلك الحدائق الناضرة وطلع القمر من وراء الافق وسكب عليها نوراً لطيفا ، وأنا جالس هنالك تحت الاشجار أتأمل فى انقـلاب الجو من حالة الى حالة ، وأنظر من خلال الاغصان الى النجوم المنثورة كالدراهم على بساط ازرق وأسمع من بعيد خرير جداول الوادى

ولما أستأمنت الطيور بين القضبـان المورقة وأغمضت الازهار عيونها وسادت السكينة سمعت وقع أقدام خفيفة على الاعشاب فحولت نظرى واذا فتى وفتاة يقتربان منى ثم جلسا تحت شجرة غضه وأنا أراهما ولا أرى،

وبعيد أن تلفت الفتى الى كل ناحية سمعته يقول : —

« اجلسى بجانبى ياحبيبتى واسمعيني . ابتسمى لان ابتسامتك هى رمز مستقبلنا وافرحى لان الايام قد فرحت من أجلنا . حدثتنى نفسى بالشك الذى يخامر قلبك والشك فى الحب إثم ياحبيبتى . عن قريب تصيرين سيدة هذه الاملاك الواسعة التى ينيرهاذلك القمر الفضى ، وربة هذا القصر المضاهى قصور الملوك ، تجرك خيولى المطهمة فى المتنزهات وتذهب بك مركباتى الجميـلة الى

المراقص والملاهي . ابتسمي ياحبيبتي كما يبتسم الذهب في خزائني. وارمقني كما ترمقني جواهر والدي . اسمعي ياحبيبتي فقد أبى قلبي ألا يسكب أمامك مخبآته . أمامنا سنة العسل. سنة نصرفها مع الذهب الكثير على شواطيء بحيرات سويسرا وفي متنزهات إيطاليا وقرب قصور النيل وتحت أغصان أرز لبنان . سوف تلتقين بالامرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملابسك كل ذلك لك مني . فهلا رضيت . آه ما أحلى ابتسامك . ابتسامك يحاكي ابتسام دهري »

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الازهار بأقدامهما كما تدوس قدم الغني قلب الفقير

غابا عن بصري وأنا أفكر بمنزلة المال عند الحب . أفكر بالمال مصدر شرور الانسان وبالحب منبع السعادة والنور

ظللت تائهاً في مسارح هذه الافكار حتى لمحت شبحين مرا من امامي وجلسا على الاعشاب . فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث اكواخ الفلاحين في المزارع . وبعد هنيهة من سكينه مؤثرة سمعت هذا الكلام صادراً مع تنهدات عميقه من فم مصدور . — « كفكفي الدمع يا حبيبتي ان المحبة التي شاءت ففتحت أعيننا وجعلتنا من عبادها تهبنا نعمة الصبر والتجلد . كفكفي الدمع وتعزى لاننا تحالفنا على دين الحب ، ومن أجل الحب العذب نحتمل عذاب الفقر

ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد لى من مصـــارعة الايام حتى اظفر بغنيمة تليق بان أضعها بين يديك تساعدنا على قطع مراحل العمر . ان المحبة يا حبيبتى — وهى الله — تقتبل منا هذه التهدات وهذه الدموع كبخور عاطر وهى تكافئنا عليها بقدر ما نستحق ، اودعك باحبيبتى فأنا راحل قبل أن يغيب القمر »

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات انفاس متلهبة . صوت عذراء لطيفة أودعته كل ما فى جوارحها من حرارة الحب ومرارة التفرق وحلاوة التجـلد تقول : « الوداع ياحبيبى »

ثم افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبنى ايدى الشفقة وتتساهمنى اسرار هذا الكون الغريب

ونظرت تلك الســاعة نحو الطبيعة الراقدة وتأملت ملياً فوجدت فيها شيئاً لاحد له ولا نهاية . شيئاً لا يشــترى بالمال . وجدت شيئاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميتـه حزن الشتاء . شيئا لاتوجده بحيرات سويسرا ولامتنزهات ايطاليــا . وجدت شيئا يتجــلد فيحيا فى الربيع ويثمر فى الصيف . وجدت فيها — المحبة

رؤيا

* * *

هنـاك فى وسط الحقل على ضفة جـدول بلورى رأيت قفصاً حبكت ضلوعـه يد ماهرة . و فى إحـدى زوايا القفص عصفور ميت وفى زاوية أخرى جرن جف ماؤه وجرن نفدت بذوره

فوقفت وقد امتلكتنى السكينـه وأصغيت صاغراً كأن فى الطائر الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير و تستفسر القلب . وتأملت فعلمت أن ذلك العصفور الحقير قد صـارع الموت عطشاً وهو بجانب مجارى الميـاه وغالبـه جوعاً وهو فى وسط الحقول التى هى مهـد الحياة كغنى أقفلت عليـه أبواب خزائنه فمات جوعاً بين الذهب

وبعـد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيـكل انسان شفافاً وتحول الطائر الميت الى قلب بشرى فيـــه جرح عميق يقطر دمـاً قرمزياً وقد حاكت جوانب الجرح شفتى امرأة حزينة

ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلا : — « أنا هو القلب البشرى أسير المادة وقتيل شرائع الانسان الترابي . فى وسط حقل الجمال ،على ضفة ينابيع الحياة أسرت فى قفص الشرائع التى سنها الانسان للشواعر . على مهد محاسن المخلوقات بين أيدى المحبة مت مهملا لان ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حرما علي · كل ما يشوقنى صار بعرف الانسان عاراً وجميع ما اشتهيه أصبح فى قضائه مذلة.

أنا القلب البشرى قد حبست فى ظلمة سنن الجامعة فضعفت ، وقيدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت ، وأهملت فى زوايا غى المدنية فقضيت ولسان الانسانية منعقد وعيونها ناشفة وهى تبتسم »

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك الناب الجريح و بعد ذلك لم أعد أرى شيئاً ولم أسمع صوتاً فرجعت لحقيقتى



الجمال

« ان الجمال دين الحكماء »

شاعر هندى

يا أيها الذين حاروا فى سبيل الاديان المتشعبة وهاموا فى أودية الاعتقادات المتباينة فرأوا حرية الجحود أوفى من قيود التسليم ، ومسارح النكران أسلم من معاقل الاتباع اتخذوا الجمال ديناً واتقوه رباً فهو الظاهر فى كمال المخلوقات البادى فى نتائج المعقولات . أنبذوا الألى مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وآمنوا بألوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ومنبع محبتكم السعادة ، ثم توبوا اليه فهو المقترب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم ، والمدرب أنفسكم فى مجال الطبيعة موطن حياتكم

ويا أيها الذين ضاعوا فى ليل التقولات وغرقوا فى لجج الاوهام ان فى الجمال حقيقة نافية الريب ، مانعة الشك ، ونوراً باهراً يقيكم ظلمة البطل . تأملوا فى يقظة الربيع ومجىء الصبح — ان الجمال نصيب المتأملين

اصغوا لانغام الطيور ، وحفيف الاغصان ، وخرير الجدول — ان الجمال قسمة السامعين . انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب ، وقوة الكهل ، وحكمة الشيخ — ان الجمال فتنة الناظرين

تشببوا بنرجس العيون ، وورد الخدود ، وشقيق الفم — ان الجمال يتمجد بالمتشببين . سبحوا اغصن القد ، وليل الشعر ، وعاج العنق — ان الجمال يسر بالمسبحين . كرسوا الجسد هيكلا للحسن وقدسوا القلب مذبحاً للحب — ان الجمال يجازى المتعبدين

تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا اذ لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون



الحروف النارية

احفروا على لوح قبري:
« هنا رفات من كتب اسمه بماء »

جان كيتس

أهكذ تمر بنا الليالي ؟ أهكذا تندثر تحت أقدام الدهر ؟
أهكذ تطوينا الأجيال ولا تحفظ لنا سوى اسم تخطه على صحفها بماء بدلا من المداد ؟
أينطفىء هذا النور وتزول هذه المحبة وتضمحل هذه الأماني ؟
أيهدم الموت كل ما نبنيه ويذرى الهواء كل ما نقوله ويخفى الظل كل ما نفعله ؟
أهذه هى الحياة ؟ هل هى ماض قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقاً بالماضي ، ومستقبل لا معنى له إلا اذا ما مر وصار حاضراً أو ماضياً ؟
أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان أنفسنا بدون أن نعلم نتائجها ؟
أهكذا يكون الانسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن ؟

لا لعمرى فحقيقة الحياة حياة. حياة لم يكن ابتداؤها فى الرحم ولن يكون منتهاها فى اللحد. وما هذه السنوات إلا لحظة من حياة أزلية أبدية. هذا العمر الدنيوى مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التى ندعوها الموت المخيف، حلم ولكن كل ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله

فالاثير يحمل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة. والملائكة تحصى كل دمعة يقطرها الحزن من مآقينا وتعيده على مسمع الأرواح السابحة فى فضاء اللانهاية كل أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا.

هناك فى العالم الآتي سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا، وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التى نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط

الضلال الذى ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر فى الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم

الأتعاب لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا،

الارزاء التى نحتملها ستكون أكليلا لفخرنا

هذا ولو علم «كيتس» ذلك البابل الصداح ان أناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال فى قلوب البشر لقال: «احفروا على لوح قبرى — هنا بقايا من كتب اسمه على اديم السماء باحرف من نار»

بين الخرائب

***

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعا لطيفا، وظفر الهدو بأعنة الكائنات ، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبار يهزأ بعاديات الليالى

فى تلك الساعة انبثق من لاشىء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامى استأصله الدهر من ذلك البناء الغريب يتأملان بمحيط يحاكى مسارح السحر . وبعد هنيهة رفع أحدهما رأسه وبصوت يشبه الصدى الذى تردده خلايا الاودية البعيدة قال : — « هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يامحبوبتى . وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك وقد دكت ولم يبق منها سوى أثر يحدث الامم بمجد صرفت الحياة لتعميمه وعز أستخدمت الضعفاء لتعظيمه — تأملى يامحبوبتى فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها واستصغرت الأجيال حكمة رأيتها، وأضاع النسيان ملكا رفعته ولم يبق لى سوى دقائق المحبة التى أولدها جمالك ونتائج الجمال الذى أحياه حبك . بنيت هيكلا فى أورشليم للعبادة فقدسه الكهان ثم سحقته الايام ،

وبنيت هيكلا بين أضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات، صرفت العمر مستفسراً ظواهر الاشياء مستنطقاً أعمال المادة فقال الإنسان « ما أحكمه ملكا » وقالت الملائكة « ما أصغره حكيما » ثم رأيتك يا محبوبتي وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ففرحت الملائكة أما الانسان فلم ينتبه . . . .
كانت أيام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح الجميل المستتر في الكائنات ، ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلما لتيارات القنوط حاسباً كل شيء تحت الشمس باطلا . حبكت الدروع وطرقت التروس ، فهابتني القبائل ولما أنارتني المحبة احتقرت حتى من شعبي، ولكن عند مجيء الموت أودع تلك الدروع والتروس بالتراب وحمل محبتي الى الله »

وبعد سكينة قال الخيال الثاني ! — « مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطاياها قوة وحكمة »

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالا واحداً وسارا . وبعد هنيهة أذاع الهواء هذه الكلمات في تلك الانحاء : « لا تحفظ الابدية الا المحبة لانها مثلها » . . .

رؤيا

ارفع هذه الرسالة الى الفيكونتس (س . ل .)
جواباً على رسالة أكرمتني بها

مشى الشباب أمامي فاتبعت مسيره حتى اذا بلغنا حقلا بعيداً وقف متأملا الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطيع نعاج بيضاء ، والاشجار المشيرة بأغصانها العارية الى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاع أوراقها الغضة . فقلت أين نحن أيها الشباب. قال : — في حقول الحيرة فانتبه . قلت : — لنرجع ! لان وحشة المكان تخيفني ومرأى الغيوم والاشجار العارية يحزن نفسي . قال : — اصبر فالحيرة بدء المعرفة . ثم نظرت فاذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغربا : — من هذه ؟ قال : — هي ميلبومين ابنة جوبتير وربة الروايات المحزنة (١)

(١) كان للفنون عند قدماء اليونان تسع معبودات «ميوز» وكانت كل منهن توحي الى مريدها بحسب محبته لها وأهليته لعطاياها وهذه أسماؤهن «ميلبومين» ربة الروايات المحزنة . « بوليمنيا » ربة الشعر والغناء «ثاليا» ربة الشعر الهزلي . «كاليوب» ربة الفصاحة والشعر الحماسي . « ارتو » ربة الموشحات والتغزل . « ترسكوري » ربة الرقص . «اورانيا» ربة علم الفلك . « كليو » ربة التاريخ . « اوتربي» ربة فن الموسيقى

قلت : — وماذا تبتغى الاحزان منى وأنت بجانبى أيها الشاب المفرح ؟ قال : — جاءت لتريك الارض وأحزانها ومن لا يرى الاحزان لا يرى الفرح

ووضعت الحورية يدها على عينى ولما رفعتها رأيتنى منفصلا عن شبابى مجرداً من ثوب المادة فقلت : — أين الشباب يا ابنة الآلهة ؟ فلم تجبنى بل ضمتنى بجناحيها وطارت بى الى قمة جبل عال فرأيت الارض وما فيها منبسطة أمامى كالصفحة وأسرار سكانها ظاهرة لعينى كالخطوط فوقفت متهيبا بجانب الحورية متأملا خفايا الانسان مستفسراً رموز الحياة . رأيت وليتنى لم أرَ . رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة الشقاء والانسان بينهما فى حيرة يميل به نحو الآمال تارة والقنوط أخرى. رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشرى : هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والاطراء ، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح ، رأيت المدينة جالسة كابنة الازقة متشبثة بأذيال ابن آدم . ثم رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكى من أجله

رأيت الكهان يرغون كالثعالب. والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس ، والانسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهى نافرة عنه غضبى عليه لانه لم يسمعها عند ما نادته فى الشوارع

على رؤوس الاشهاد . رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم الى السماء وقلوبهم مطمورة فى قبور المطامع . رأيت الفتيان يتحببون بألسنتهم و يقتربون بآمال نزقهم . وألوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة . رأيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء . والاطباء يلعبون بارواح البسطاء الواثقين . رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش المجد ويوسد حاضره بساط السعة ويمد لمستقبله فراش الفخامة رأيت الفقراء والمساكين يزرعون والاغنياء الاقوياء يحصدون ويأكلون والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل وحراس النور غرقى فى كرى التوانى . رأيت المرأة كالقيثارة فى يد رجل لا يحسن الضرب عليها فتسمعه أنغاماً لا ترضيه . رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف الموروث. لكنى رأيت كتائب قد انحدرت لانها قليلة غير متحدة . رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها فى الشوارع وأمام الابواب تطلب مأوى والقوم يمنعونها . ثم رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس يدعونه الحرية، رأيت الدين مدفونا طى الكتاب والوهم قائماً مقامه . رأيت الانسان يلبس الصبر ثوب الجبانة ويعطى التجلد لقب التوانى . ويدعو اللطف باسم الخوف . رأيت المتطفل على موائد الاداب يدعى والمدعو اليه صامتا . رأيت المال بين أيدى المبذر شبكة

شروره وبين أيدى البخيل مجلبة لمقت الناس. وبين أيدى الحكيم لم أرَ مالا

عند ما رأيت كل هذه الاشياء صرخت متألما من هذا المنظر: —« أهذه هى الارض ياابنة الآلهة؟ أهذا هو الانسان؟ فأجابت بسكينة جارحة : — « هذه طريق النفس المفروشة شوكا وقطربا . هذا ظل الانسان . هذا هو الليل وسيجىء الصباح» ثم وضعت يدها على عينى ولما رفعتها وجدتنى وشبابى سائراً على مهل ، والأمل يركض أمامى

•



الامس واليوم

***

مشى الموسر فى حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته وحام القلق فوق رأسه، مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت، حتى بلغ بحيرة تسابقت فى صنعها أيدى الانسان وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت . فجلس هناك ينظر آناً الى المياه المتدفقة من أفواه التماثيل تدفق الافكار من مخيلة العاشق؛ وآونة الى قصره الجميل الجالس على تلك الرابية جلوس الخال على وجنة الفتاة

جلس فجالسته الذكرى ونشرت أمام عينيه صفحات كتبها الماضى فى رواية حياته فاخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الانسان واللهفه تعيد الى قلبه رسوم أيام نسجتها الالهة حتى أبت لوعته إلا الكلام فقال :

« كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابى المخضرة وافرح بالحياة وأنفخ فى شبابتى معلناً غبطتي . وها أنا اليوم أسير المطامع يقودنى المال إلى المال ، والمال إلى الانهماك ،

والانهماك إلى الشقاء. كنت كالعصفور مغرداً ، وكالفراش متنقلا ، ولم يكن النسيم أخف وطأة على رؤوس الاعشاب من خطوات أقدامى فى تلك الحقول ، وها أنا الآن سجين عادات الاجتماع : أتصنع بملابسى وعلى مائدتى وبكل أعمالى من أجل ارضاء البشر وشرائعهم . كنت أود لو إني خلقت لأتمتع بمسرات الوجود ولكننى أرانى اليوم متبعا بحكم المال سبل الغم ، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب والذهب يميتها . أين السهول الواسعة ؟ أين السواقى المترنمة ؟ أين الهواء النقى ؟ أين مجد الطبيعة ؟ أين ألوهيتى ؟ قد ضيعت كل ذلك ولم يبق لى غير ذهب أحبه فيستهزىء بي ، وعبيد اكثرتهم فقل سرورى ، وصرح رفعته ليهدم غبطتي. كنت وابنة البدو نسير ، والعفاف ثالثنا ، والحب نديمنا ، والقمر رقيبنا ، واليوم أصبحت بين النوانى يمشين ممدودات الأعناق ، غامزات العيون ، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق ، البائعات الوصل بالاساور والخواتم . كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان ، نشترك بانشاد الأغانى ، نقتسم ملذات الحقول ، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر ، أمشى فى الشوارع فتنفتح علي عيون البغض ويشار الى بأصابع الحسد. وان ذهبت إلى المتنزهات لا أرى غير وجوه كالحة ورؤوس شامخة . بالأمس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة ، واليوم سلبتهما ، بالأمس كنت

غنياً بسعادتى . واليوم أصبحت فقيراً بمالى ، وبالأمس كنت ونعاجى مثل ملك رؤوف ورعية ، واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيد المظلوم ... ما كنت أحسب أن المال يطمس عين نفسى ويقودها إلى مغائر الجهل ولم أدر أن ما يحسبه الناس مجداً كان واحر قلباه جحيما .... »

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متـأوهاً مردداً : « أهذا هو المال ؟ أهـذا الاله الذى صرت كاهنـه ؟ أهذا ما نبتاع بالحياة ولا يمكننـا ان نستبدل به ذرة من الحياة ؟ من يبيعنى فكراً جميلا بقنطار من الذهب ؟ من يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبـة ؟ من يعطينى عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائنى؟ »

ولمـا وصل الى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة أرميـا إلى أورشليم واومأ بيده نحوها كأنه يرثيها وقال بصوت عال : « أيها الشعب السالك فى الظلمة ، الجالس فى ظـل الموت ، الراكض وراء التعـاسة ، القاضى بالبطل ، المتكلم بالحماقة ، إلى متى تأكل الشوك والحسك وترمى الثمار والزهر إلى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركا بستان الحياة؟ لماذا ترتدى الاطمار البالية وثوب الدمقس قد فصل من أجلك ؟ أيها الشعب قد انطفأ سراج الحكمة فاسقه زيتاً . وخرب ابن

السبيل كرم السعادة فاحرسه . وسرق اللص خزائن راحتك فانتبه ! »

فى تلك الدقيقة وقف أمام الغنى فقير ومد يده متسولا ، فنظر اليه وقد انضمت شفتاه المرتجفتان وانبسطت سحنته المنقبضة وانبعث من عينيه نور لطيف . كان الأمس الذى رثاه بقرب البحيرة قد مر مسلماً فاقترب من المستعطى وقبله قبلة المحبة والمساواة وملأ يده ذهباً وقال والرأفة تسيل من كلماته :« خذ يا أخى الآن وعد غداً مع اترابك واسترجعوا أموالكم » فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بعيد المطر وراح مسرعاً

حينئذ دخل الموسر إلى قصره قائلا : كل شىء حسن فى الحياة حتى المال لانه يعلم الانسان أمثولة . إنما المال كالارغن يسمع من لا يحسن الضرب عليه أنغاماً لا ترضيه . المال كالحب يميت من يضن به ويحيي واهبه .



رحماك يانفس رحماك

***

حتى، مَ تنوحين يا نفسى وأنت عالمة بضعفى ؟ الى متى تضجين وليس لدى سوى كلام بشرى أصور به أحلامك ؟

انظرى يانفسى . فقد أنفقت عمرى مصغياً لتعاليمك . تأملي يامعذبتى ، لقد أنافت جسمى متبعاً خطواتك

كان قلبى مليكى ، فصار الآن عبدك ، وكان صبرى مؤنسى ، فغـــدا بك عذولى ، كان الشباب نديمى فأصبح اليوم لائمى . وهـذا كل ما أوتيته من الالهة ، فبم تستزيدين وبمَ تطمعين؟

قد أنكرت ذاتى وتركت ملاذ حياتى وغادرت مجد عمرى ولم يبق لى سواك ، فاقضى علي بالعدل، فالعدل مجدك أو استدعى الموت واعتقى من الاسر معناك

رحمـاك يانفس فقد حملتنى من الحب ما لا أطيقه : أنت والحب قوة متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرق ، وهل يطول عراك بين قوى وضعيف ؟

رحماك يانفس فقد أريتنى السعادة عن بعد شاسع أنت والسعادة على جبل عال ، وأنا والشقاء فى أعماق الوادى . وهل يتم لقاء بين علو ووطؤة ؟

رحماك يانفس ، فقد أبنت لى الجمال وأخفيته : أنت والجمال فى النور ، وأنا والجهل فى ظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة ؟

أنت يانفس تفرحين بالآخرة قبل مجىء الآخرة ، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو فى الحياة

أنت تسيرين نحو الأبدية مسرعة ، وهذا الجسد يخطو نحو الفناء بيطء ، فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع ؛ وهذا يانفس منتهى التعاسة

أنت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط الى تحت بجاذبية الارض ، فلا أنت تعزينه ولا هو يهنئك وهذه هى البغضاء

أنت يانفس غنية بحكمتك ، وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا أنت تتساهلين ولا هو يتبع ، وهذا أقصى الشقاء

أنت تذهبين فى سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق ، وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق

رحماك يانفس رحماك

الارملة وابنها

* * *

هجم الليل مسرعاً على شمالى لبنان مستظهراً على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادى قاديشا (١) جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الارياح خطوطاً تمحوها الارياح وتتلاعب بها العواصف مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة

اختبأ الانسان فى منازله والحيوان فى مرابضه وسكنت حركة كل ذى نسمة حية ولم يبق غير برد قارص وزمهرير هائج وليل أسود مخيف وموت قوى مريع

---

(١) وادي قاديشا أي وادي القديسين سمي بهذا الاسم اذ كان ملجأ الزاهدين ومأوى النساك الهاربين من شقاء العالم وضجة الاجتماع حيث كانوا يجدون الكهوف المخروقة بيد الطبيعة والسكينة المالكة تلك الاماكن وهو واد عميق كثيراً ما ترغب الشمس في أن تفوز بنظرة من جميعه نظراً لعمه واتساعه . وادكأنه جرح بليغ فى صدر لبنان خرقه ناب الدهر غدراً بعد ان كان صديقاً صدوقاً

وكان فى منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة أمام موقد تنسج الصوف رداء وبقربها وحيدها ينظر تارة إلى أشعة النار، وطوراً إلى وجه أمه الهادىء . فى تلك الساعة عصفت الارياح بشدة وهزت أركان ذلك البيت، فذعر الصبى واقترب من أمه محتمياً بحنوها من غضب العناصر، فضمته إلى صدرها وقبلته ثم أجلسته على ركبتيها وقالت : « لا تجزع يا ابنى، فالطبيعة تريد أن تعظ الانسان مظهرة عظمتها تجاه صغره، وقوتها بجانب ضعفه . لا تخف يا ولدى فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والارياح العاصفة روح قدوس كلى عالم بما تحتاجه الحقول والاكام . من وراء كل شىء كوة ناظرة إلى حقارة الانسان بعين الشفقة والرحمة . . لا تجزع يا فلذة كبدى، فالطبيعة التى ابتسمت فى الربيع وضحكت فى الصيف وتأوهت فى الخريف تريد أن تبكى الآن، ومن دموعها الباردة تستقى الحياة الرابضة تحت أطباق الثرى . نم يا ولدى، ففى الغد تستيقظ وترى السماء صافية الاديم، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلما ترتدى النفس ثوب الطهر بعيد مصارعة الموت . نم ياوحيدى، فوالدك ناظر الآن الينا من مسارح الأبدية وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر تلك النفوس الخالدة، نم يا حبيبى، فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف تجنى الازهار الجميلة عند ما يجىء نيسان.

كذا الانسان يا ابنى لا يستثمر المحبة إلا بعد بعاد أليم ، وصبر مر ، وقنوط متلف . نم ياصغيرى ، فسوف تأتى الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد »

ونظر الصبى الى أمه وقد كحل النعاس عينيه وقال: «لقد أثقل أجفانى الكرى يا أماه وأخاف أن أنام قبل تلاوة الصلاة ، فعانقته الأم الحنونة ونظرت من وراء الدموع الى وجهه الملاكى ثم قالت : « قل معى ياولدى — اشفق يارب على الفقراء واحمهم من قساوة البرد القارص واستر جسومهم العارية بأيديك ، انظر الى اليتامى النائمين فى الاكواخ وأنفاس الثلج تكلم أجسامهم ، اسمع يارب نداء الارامل القائمات فى الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد . امدد يدك يارب الى قلب الغنى وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين . ارفق يارب بالجائعين الواقفين أمام الابواب فى هذا الليل الظلوم واهد الغرباء الى المأوى الدافئة وارحم غربتهم . انظر يارب الى العصافير الصغيرة واحفظ بيمينك الاشجار الخائفة من قساوة الرياح . . ليكن هذا يارب »

ولما عانق الكرى نفس الصبى مددته والدته على فراشه وقبلت جبهته بشفتين مرتجفتين ثم رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف رداء

الدهر والامة

***

على سفح لبنان بقرب جدول ينسل بين الصخور كاسلاك فضية جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعي الاعشاب اليابسة بين الاشواك الغضة — صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ مآتى الآتي على صفحات الجو وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى أزهار النرجس وفتح الأسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهداً

ولما جاء المساء وأخذت تلك الروابى تلتف برداء الظل وقف أمام الصبية فجأة شيخ يتدلى شعره الأبيض على صدره وكتفيه حاملا بيمينه منجلاً سنيناً وقال بصوت يحاكى هدير الامواج « سلام على سوريا »

فوقفت الفتاة مذعورة وأجابته بصوت يقطعه الوجـــل ويصله الحزن قائلة : « ماذا تبتغى الآن منى أيها الدهر ؟ »

ثم اومأت نحو أغنامها وزادت : « هذا بقايا قطيع كان يملأ الاودية »

هذه نضلة مطامعك فهل جئت لتستزيد منها

هذه هي المسارح التي أجد بها دوس قدميك وقد كانت منبت الخصب والرزق . كانت نعاجي ترتعى رؤوس الازهار وتدر لبناً ذكياً فها هي الآن خمص البطون تقضم الأشواك وأصول الاشجار مخافة الفناء

اتق الله يادهر وانصرف عني فقد كرهتني الحياة ذكرى مظالمك وحببت إلى الموت قساوة منجلك

اتركني ووحدتي أرشف الدمع شراباً وانتشق الحزن نسيما واذهب يادهر إلى الغرب حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ودعني انتحب في مآتم أنت عاقدها »

فنظر الشيخ اليها نظرة الأب وقد أخفى منجـــله طي أثوابه وقال :

« ما أخذت منك ياسوريا إلا بعض عطاياي وما كنت ناهباً قط بل مستعيراً أرد ، ووفيا ارجع . واعلمي أن لاخواتك الأمم نصيباً باستخدام مجد كان عبدك ، وحقاً بلبس رداء كان لك . أنا والعدل أقنومان لذات واحدة . فلا يحمل بي سوى اعطاء اخواتك ما أعطيتك ولست قادراً على تسويتكن في محبتي لان المحبة لا تقسم إلا على السواء . لك ياسوريا اسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكل منهن

قطيع يشابه قطيعك ومرعى نظير مرعاك . أن ما تدعينه انحطاطاً ياسوريا أدعوه نوماً واجباً يعقبه النشاط والعمل ، فالزهرة لا تعود إلى الحياة إلا بالموت ، والمحبة لا تصير عظيمة إلا بعد الفراق »

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلا : هزى يدى يا ابنة الانبياء » فأخذت يده وهى تنظر اليه من وراء الدمع وقالت : « الوداع أيها الدهر الوداع » فأجابها : « الى اللقاء ياسوريا الى اللقاء »

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفى البرق فنادت الصبية أغنامها ومشت مرددة : « هل من لقاء ياترى هل من لقاء ؟ »

أمام عرش الجمال

* * *

هربت من الاجتماع وهمت فى ذاك الوادى الوسيع متبعاً مجارى الجدول تارة ومصغياً الى محاورات العصافير طوراً حتى بلغت مكاناً حمته الاغصان من نظرات الشمس فجلست أسامر وحدتى وأناجى نفسى — نفس ظامئة رأت كل مايرى سراباً وكل ما لا يرى شراباً

ولما انطلقت عاقلتى من محبس المادة الى فضاء الخيال التفت فاذا بفتاة واقفة على مقربة منى . حورية لم تتخذ من الحلي والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها واكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبى . . . واذ علمت من نظراتى اننى صرت مسلوب الفجأة والحيرة قالت : « أنا ابنة الاحراج فلا تجزع » قلت وقد ردت حلاوة صوتها بعض رمقى : « وهل يقطن من كان مثلك برية سكنتها الوحشة والوحوش ؟ قولى لى بعيشك من أنت ومن أين أتيت ؟ » فقالت وقد جلست على الاعشاب : « أنا رمز الطبيعة . أنا العذراء التى

عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل في بعلبك وافقا وجبيل »
قلت تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادي ساوت أديم
الارض ولم يبق من آثار آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة
في بطون الكتب » قالت : « بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم
ويموتون بموتهم . وبعضهم يحيون بألوهية ازلية أبدية . أما
ألوهيتي فهي مستمدة من جمال تراه كيفما حولت عينيك —
جمال هو الطبيعة بأسرها . جمال كان بدء سعادة الراعي بين الربى
والقروي بين الحقول والعشائر الرحل بين الجبل والساحل .
جمال كان للحكيم مرقاة الى عرش حقيقة لا تجرح » قلت ودقات
قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان : « ان الجمال قوة مخيفة رهيبة . »
فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الازهار وفي نظرها أسرار الحياة :
« أنتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم . تخافون السماء وهي
منبع الامن . تخافون الطبيعة وهي مرقد الراحة وتخافون
إله الآلهة وتعزون اليه الحقد والغضب وهو ان لم يكن محبة
ورحمة لم يكن شيئاً »

وبعد سكينة مازجتها الاحلام اللطيفة سألتها : « ما هذا
الجمال ؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده
ومحبته » . قالت : « هو ما كان بنفسك جاذب اليه — هو
ما تراه وتود أن تعطيَ لا أن تأخذ — هو ما شعرت عند

ملقاه بأيادٍ ممدودة من أعماقك لضمه الى أعماقك — هو ماتحسبه الاجسام محنة والارواح منحة — هو ألفة بين الحزن والفرح — هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولا وتسمعه صامتاً — هو قوة تبتدىء فى قدس أقداس ذاتك وتنتهى فى ما وراء تخيلاتك ...... »

واقتربت ابنة الأحراج منى ووضعت يدها المعطرة على عيني ولما رفعتها رأيتنى وحيداً فى ذلك الوادى ، فرجعت ونفسى مرددة « ان الجمال هو ما تراه وتود أن تعطىَ لا أن تأخذ »



زيارة الحكمة

***

فى هدوء الليــــل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعى ونظرت إلىَّ نظرة الام الحنون ومسحت دموعى وقالت « سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزيهـا . ابسط قلبك أمامى فاملأه نوراً . سلنى فأريك سبيل الحق » فقلت : « من أنا أيتها الحكمة وكيف سرت الى هذا المكان المخيف ؟ — ما هـذه الامانى العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الافكار التى تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل ، المنثور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة ، المفرحة، المعانقةروحى، المساورة قلبى ؟ ما هذه العيون المحدقة بى ، الناظرة أعماقى ، المنصرفة عن آلامى ؟ ما هذه الاصوات النائحــــة على أيامى المترنمة بصغرى ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بأميالى ، المستهزىء بعواطفى ، الناسى أعمال الامس ، الفارح بتفاهة الحال ، المستنكف من بطء الغد ؟ ماهذا العالم السائر بى الى حيث لاأدرى ، الواقف معى موقف الهوان ؟ ما هذه الأرض

الفاغرة فاها لابتلاع الاجسام ، المفرجة صدرها لسكنى المطامع ؛ ما هذا الانسان الراضى بمحبة السعادة ، ودون وصالها الهاوية ، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه ، الشارى دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والاحلام تناديه السائر مع سواقى الجهالة الى خليج الظلمة ؛ ما هذه الاشياء أيتها الحكمة ؟ . . . »

فقالت : « أنت تريد أيها البشرى أن ترى هذا العالم بعين إله وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتى بفكرة بشرية وهذا منتهى الحماقة . اذهب الى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور والنسر ينقض على الفريسة . ادخل بيت جارك ترى الطفل مدهوشاً بأشعة النار والوالدة مشغولة بأعمال منزلها . كن أنت كالنحلة ولا تصرف أيام الربيع ناظراً أعمال النسر . كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها. كل ماتراه كان ويكون من أجلك . الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والافكار الجميلة هى أشباح نفوس الذين تقدموك . الكلام الذى تحوكه هو الواصل بينك وبين اخوانك البشر . النتائج المحزنة المفرحة هى البذور التى القاها الماضى فى حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل . . . . ان هذا الشباب المتلاعب بأميالك هو هو الفاتح باب قلبك

لدخول النور . ان هذه الارض الفاغرة فاها هى التى تخلص نفسك من عبودية جسدك . ان هذا العالم السائر بك هو قلبك فقلبك هو كل ماتظنه عالماً. ان هذا الانسان الذى تراه جاهلا وصغيراً هو الذى جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن والمعرفة من الظلمة ... »

ووضعت الحكمة يدها على جبهتى الملتهبة وقالت : —
« سر الى الامام ولا تقف قط فالامام هو الكمال ، سر ولا تخش أشواك السبيل فهى لا تستبيح الا الدماء الفاسدة »



حكاية صديق

١

عرفته فتى ضائعاً فى مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شبيبته ، مستميتا فى ادراك غرض أمياله . عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق الى لجة الشهوات

عرفته فى تلك القرية صبيا شرسا يمزق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفراخها ، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها . وعرفته فى المدرسة يافعا ، بعيداً عن الاقتباس ، قريبا من الغطرسة ، عدواً للسكينة . وعرفته فى المدينة شابا يتاجر بشرف أبيه فى سوق الخسائر ، ويبذر أمواله فى نوادى التهتك ، ويعطى عاقلته الى ابنة الكرمة

ولكنى كنت أحبه . أحبه محبة يساورها الأسف ويمازجها الاشفاق . أحبه لان منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة ، بل كانت مآتى نفس ضعيفة قانطة . النفس أيها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود اليها مريدة . وللشبيبة أعاصير تهب حاملة غباراً ورمالا تملأ الاجفان فتغمضها وتعميها — تعميها إلى أمد بعيد فى أكثر المواطن

أحببت هـــذا الفتى وكنت مخلصا له لانني رأيت حمامة ضميره تغالب نسر سيئاته فتغلب تلك الحمامة بقوة عدوها لا بجنانها . الضمير قاض عادل ضعيف والضعف واقف فى سبيل تنفيذ أحكامه

قلت أحببته والمحبـــة تأتي بأشكال مختلفة ، فهى الحكمة آناً والعدل آونة ، والأمل أخرى ، فمحبتى له كانت أمـــلي باستظهار نور شمس الوضعى على ظلمة متاعبهـا العرضية . على أنني كنت جاهلا أنى وأين تتبدل الادران بنقاوة ؛ والشراسة وداعـة ، والطيش بحكمة ، والانسان لا يدرى كيفية انعتـاق النفس من عبودية المادة إلا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف يبتسم الازهار إلا بعد مجيء الصباح

٢

مرت الأيام آخذة باعتناق الليالى ، وأنا أذكر ذلك الفتى بغصات مؤلمـة ، وأردف لفظ اسمه بتنهيـدات تجرح القلب وتدمى . حتى وافانى بالأمس كتاب منه قال فيه :

ـــ تعال إلى ياصـديقى فأنا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسر قلبك لقاؤه وتطيب نفسك بمعرفته . . .

قلت : ويحى ! أيريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على شاكلته ، أو لم يكن وحـــده أمثولة كافية لتعريف آيات

الضلال ؟ وهل يروم الآن تذييل تلك الامثولة بآيات رفاقه كيلا يفوتني حرف من كتاب المادة ؛ ثم قلت: اذهب فالنفس تجني من العوسج تينا بحكمتها . والقلب يستمد من الظلمة نوراً بمحبته . . . ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً في غرفته يقرأ كتاباً شعرياً فحييته مستغرباً وجود الكتاب بين يديه وقلت : « أين الصديق الجديد » قال: « هو أنا ياخليلي هو أنا » ثم جلس بهدوء ما عهدته فيه ونظر إلى وفي عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح . تلك العيون التي طالما تأملتها ولم أرَ فيها غير العنف والقساوة أصبحت تبعث نوراً يملأ القلب انعطافاً . ثم قال بصوت حسبته صادراً من غيره : « أن ذاك الذي عرفته في الحداثة ورافقته أيام المدرسة وماشيته في الشبيبة قد مات وبموته ولدت أنا . أنا صديقك الجديد فخذ بيدي » . أخذت يده فشعرت عند الملامسة أن في تلك اليد روحا لطيفا يسري مع الدماء — تلك اليد العنيفة قد صارت لينة . تلك الأصابع التي شابهت بالأمس مخالب النمر بأعمالها أصبحت تلامس القلب برقتها . ثم قلت — وليتني أذكر غرابة ما قلت: « من أنت وكيف سرت وأين صرت؛ هل اتخذك الروح هيكلا فقدسك أم أنت تمثل أمامي دوراً شعريا ؟ . قال : «أي يا صديقي أن الروح قد حل علي وقدسني . الحب العظيم قد جعل قلبي مذبحا طاهراً . هي المرأة يا خليلي — المرأة التي

ظننتها بالأمس ألسية الرجل قد أنقذتنى من ظلمة الجحيم وفتحت أمامى أبواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بى إلى أردن محبتها وعمدتنى . تلك التى احتقرت أختها بخبازنى قد رفعتنى إلى عرش المجد . تلك التى دنست رفيقتها بجهلى قد طهرتنى بعواطفها . تلك التى استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حررتنى بجمالها ... تلك التى أخرجت آدم الأول من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتنى إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادى .

فى تلك الدقيقة نظرت اليه فوجدت المدامع تتلألأ فى عينيه ، والابتسام يراود شفتيه ، وشعاع الحب يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركا مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح . ثم ودعته ورجعت مردداً قوله : « تلك التى أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتنى إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادى »

بين الحقيقة والخيال

تحملنا الحياة من مكان الى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط الى آخر ونحن لانرى الا موقف عثرة فى سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا

يتجلى لنا الجمال على كرسى مجده فنقترب منه وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره. يمر بنا الحب مكتسباً ثوب الوداعة فنخافه ونختبىء فى مغائر الظلمة أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور، والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلا وهو ألطف من انفاس الازهار وأرق من نسمات لبنان. تقف الحكمة فى منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الاشهاد فنحسبها بطلا ونحتقر متبعيها. تدعونا الحرية الى مائدتها لنلتذ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مرسحا للابتذال ومجالا لاحتقار الذات. تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا أن نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجىء الى المدينة وهناك نتكاثر على بعضنا بعضا كقطيع رأى ذئبا خاطفا.
تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل أو قبلة محبوبة فنوصد

دونها أبواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس . القلب البشرى يستنجد بنا والنفس تنادينا ونحن أشد صمما من الجماد لا نعى ولا نفهم واذا ماسمع أحد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا ذو جنة وتبرأنا منه

هكذا تمر الليالى ونحن غافلون وتصافحنا الايام ونحن خائفون من الليالى والايام . نقترب من التراب والالهة تنتمى الينا ونمر على خبز الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا فما أحب الحياة الينا وما أبعدنا عن الحياة



يا خليلي الفقير

يا من ولدت على مهد الشقاء وربيت على أحضان الذل وشببت فى منازل الاستبداد ، أنت الذى تأكل خبزك اليابس بالتنهد وتشرب ماءك العكر ممزوجا بالدموع والعبرات

ويا أيها الجندى المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته وصغاره ومحبيه ويذهب الى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه الواجب

ويا أيها الشاعر الذى يعيش غريبا فى وطنه ومجهولا بين معارفه ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق

ويا أيها السجين المطروح فى الظلمة من أجل ذنب صغير جسَّمه غى الذين يقابلون الشر بالشر واستغربته عاقلة الألى يرومون الاصلاح بواسطة الفساد

وأنت أيتها المسكينة التي وهبها الله جمالا رآه فتى العصر فاتبعك وغرك وتغلب على فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسه

أنتم يا أحبائى الضعفاء شهداء شرائع الانسان أنتم تعسه

وتعاستكم نتيجة بغى القوى وجور الحاكم وظلم الغنى وأنانيـة عبد الشهوات

لا تقنطوا ، فمن مظالم هـذا العالم ، من وراء المـادة ، من وراء الغيوم ، من وراء الأثير ، من وراء كل شيء — قوة هى كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة

أنتم مثـــل أزهار نبتت فى الظل . سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم الى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة

أنتم نظير أشجار عارية مثقلة بثلوج الشتاء . سـوف يأتى الربيع ويكسوكم أوراقا خضراء غضة

سوف تمزق الحقيقة غشـاء الدمع الحاجب ابتساماتكم

أنا أقبلكم يا اخوتي وأحتقر مضطهديكم



مناحة فى الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق جلست فى وسط الحقل أناجى الطبيعة . فى تلك الساعة المملوءة طهراً وجمالا بينما كان الانسان مستتراً طى لحف الكرى تتنابه الاحلام تارة واليقظة أخرى كنت متوسداً الاعشاب أستفسر كل ماأرى عن حقيقة الجمال وأستحكى ما يرى عن جمال الحقيقة

ولما فصلت تصوراتى بينى وبين البشريات وأزاحت تخيلاتى برقع المادة عن ذاتى المعنوية شعرت بنمو روحى يقربنى من الطبيعة ويبين لى غوامض أسرارها ويفهمنى لغة مبتدعاتها

وبينما كنت على هذه الحالة مر النسيم بين الاغصان متنهداً تنهد يتيم يائس فسألت مستفهماً : لماذا تتنهد أيها النسيم اللطيف ؛ فأجاب لاني ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس . الى المدينة حيث تتعلق بأذيالى النقية مكروبات الأمراض وتتشبث بى أنفاس البشر السامة . من أجل ذلك ترانى حزينا .

ثم التفت نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعا فسألت : « لماذا البكاء يا أيتها الأزهار الجميلة ؟ » فرفعت واحـــدة منهن رأسها اللطيف وقالت : « نبكى لان الانسان سوف يأتي و يقطع أعناقنا و يذهب بنـا نحو المدينـة و يبيعنا كالعبيد ونحن حرائر واذا ما جاء المساء وذبلنا رمى بنا إلى الأقذار . كيف لا نبكي و يد الانسان القاســية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل »

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى فسألته : « لماذا تنوح يا أيها الجدول العذب ؟ » فأجابنى «لانى سائر كرها الى المدينـة حيث الانسان يحتقرنى ويستعيض عنى بعصير الكرمة ويستخـدمني لحمل أدرانه . كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتي وزراً وطهارتي قذراً »

ثم أصغيت فسمعت الطيور تغنى نشيداً محزنا يحاكى الندب فسألتها : « لماذا تندبين يا أيتها الطيور الجميـلة ؟ » فاقترب منى عصفور ووقف على طرف الغصن وقال : «سوف يأتى ابن آدم حاملا آلة جهنميـة تفتك بنـا فتك المنجل بالزرع فنحن نودع بعضنا بعضا لاننا لا ندرى من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا أينما سرنا »

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الاشجار بأكاليل ذهبية وأنا اسأل ذاتى لماذا يهدم الانسان ما تبنيه الطبيعة؟

بين الكوخ والقصر

١

جاء المساء وشعشعت أنوار الكهربائيـــة فى صرح الغنى فوقف الخدام على الأبواب بملابس مخملية وعلى صدورهم الازرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوين

صدحت الموسيقى بأنغامها المطربة وتقاطر الاشراف والشريفات تجرهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفاون بالملابس المزركشة ويجرون أذيال العزة والفخر

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الاعزاء وأصبحت تلك المقصورة روضه تمر بها نسيمات الموسيقى فتمايل ازاهرها تيها واعجابا

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ما عز من الفاكهة وطاب من الألوان ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمه فى عقولهم حتى العبتهم

جاء الصباح وفرق شمل أولئك الاشراف الأغنياء بعد أن أضناهم السهر وسرقت عاقلتهم خمرة واتعبهم الرقص وأذبلهم

القصف وذهب كل الى فراشه الناعم

٢

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدى أثواب الشغل أمام باب كوخ حقير وقرع ففتح له ودخل وحيي مبتسما ثم جلس بين صبية يصطلون بقرب النار . وبعد ردهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعا حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفه الى كبد الظلمه

وبعد مرور الهزيع الاول من الليل قاموا بسكينة كلية واستسلموا لملك الرقاد

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلا من الخبز والحليب ثم قبلهم وحمل على كتفه معولا ضخما وذهب الى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه أولئك الاغنياء الأقوياء الذين صرعوا ليلة أمس بالقصف والخلاعه

طلعت الشمس من وراء الجبل وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك الحارث وأولئك الاغنياء ما برحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل فى صروحهم الشاهقه

هذه مأساة الانسان المستتبة على مرسح الدهر وقد كثر المتفرجون المستحسنون وقل من تأمل وعقل

طفلان

* * *

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة فى تلك الحديقة وقال : « أبشركم وأهنىء البلاد ، فالأميرة قد وضعت غلاماً يحيي شرف عائلتى المجيدة ويكون لكم فخراً وملاذاً ووريثاً لما أبقته أجدادى العظام . افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعاني »

فصاحت تلك الجموع وملأت الفضاء بأهازيج فرح متأهلة بمن سوف يربى على مهد الترف ويشب على منصة الاعزاز ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العباد ، ضابطاً بقوته أعنة الضعفاء ، حراً باستخدام أجسادهم و تلاف أرواحهم . من أجل ذلك كانوا يفرحون و يغنون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور

وبينما سكان تلك المدينة يمجدون القوى ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد والملائكة تبكى على صغرهم كان فى بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم إلى صدرها الملتهب طفلا ملتفاً بأقمطة بالية

صبية كتبت لها الأيام فقراً والفقر شقاء فأهملت من

بني الانسان . زوجة أمات رفيقها الضعيف ظلم الأمير القوى وحيدة بعثت اليها الآلهة فى تلك الليلة رفيقاً صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق

ولما سكنت جلبة الناس فى الشوارع وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ونظرت فى عينيه اللامعتين وبكت بكاء مرّا ، كأنها تريد أن تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : « لماذا جئت يا فلذة كبدى من عالم الأرواح ؟ أطمعاً بمشاطرتى الحياة المرة ؟ أرحمة بضعفى ؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الوسيع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة ؟ ليس عندى يا وحيدى إلا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلاً من الحليب ؟ وهل تلبس ذراعىّ العاريتين عوضاً عن النسيج ؟ صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت فى أوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغبوطة ، وأنت يا ولدى ليس لك إلا تنهداتى وضعفى »

حينئذ ضمت الطفل إلى صدرها بشدة كأنها تريد أن تجعل الجسدين جسداً واحداً ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت (ارفق بنا يا رب)

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر دخلت أشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير وانسكبت على جسدين هامدين . . . . .

شعراء المهجر

* * *

لو تخيل الخليل أن الأوزان التى نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح وخيوطاً تعلق عليها أصداف الافكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الاوصال

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ان ما كتباه سيصبح مورداً لافكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر فى محاجر النسيان وحطما الاقلام بأيدى الاهمال

ولو درت أرواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرة وملتون أن الشعر المتجسم من النفس المشابهة اللهسيحط رحاله فى منازل الاغنياء لبعدت تلك الارواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات

ما أنا من المتعنتين ، لكن يعز علي أن أرى لغة الارواح تتناقلها ألسنة الاغبياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين، ولست منفرداً فى وحدة الاستياء بل رأيتنى واحداً من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلا بالجاموس

الشعر ياقوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحي القلب

أو تنهدة تسرق من العين مدامعها . أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف ، وان جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوفى

فيا إلهة الشعر — يا إداتو — اغتفرى ذنوب الأُلى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخيلات أفكارهم

و يا أرواح الشعراء الناظرة الينا من أعالى عالم الخلود ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح زينتموها بلآلىء افكاركم وجواهر أنفسكم سوى ان عصرنا هذا تكثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل فجاء شعرنا ثقيلا ضخما كالقطارات ومزعجا كصفير البخار

وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون سامحونا فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الايدى ولا تدرى بها النفوس



تحت الشمس

***

« رأيت كل الأعمال التي عملت تحت »
« الشمس فاذا الكل باطل وقبض الريح »
(الجامعة)

يا روح سليمان السابحة في فضاء عالم الارواح ، يامن خلعت ثوب المادة الذى نحن نرتديه الآن . لقد تركت وراءك هــذا الكلام المنبثق من الضعف والتفرط نزلد ضعفا وقنوطا في أسرى الاجسام

أنت تعلمين الان ان في هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت ، ولكن انى للبشر تلك المعرفة التي لاتدرك الابعد انعتاق النفس من ربقة التراب ؟

أنت تعلمين الآن أن الحيــاة ليست كقبض الريح ، وان ليس تحت الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بقوالك وتدرناها وما برحنا نظنها حكمة باهرة وهى — أنت تعلمين — ظلمة تضيع العاقلة وتخفى الأمل

أنتِ تعلمين الآن أن للحماقة والشر والظلم أسباباً جميلة ، ونحن لا نرى جمالا إلا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .

أنتِ تعلمين أن الحزن والفقر يطهران القلب البشرى ، وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئاً حرياً بالوجود إلا اليسر والفرح .

أنتِ تعلمين الآن أن النفس سائرة نحو النور قهراً من عقبات العمر ، ونحن ما برحنا نردد كلامك الذى يدل على أن الانسان ليس إلا ألعوبة فى يد القوة غير المعروفة

أنتِ ندمتِ على بثك روحا يضعف محبة الحياة الحاضرة ويميت الشغف بالحيـــاة الآتية ؛ ونحن لم نزل مصرين على حفظ أقوالك

يا روح سليمان انسا كنه فى عالم الخلود ، أوحى إلى محبى الحكمة ألا يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطأ غير مقصود



نظرة الى الآتي

***

من وراء جدران الحاضر سمعت تسابيح الانسانية . سمعت أصوات الاجراس تهز دقائق الاثير معلنة بدء الصلاة فى معبد الجمال — أجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس — القلب البشرى

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة متجهة نحو المشرق ، منتظرة فيض نور الصباح — صباح الحقيقة

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبق من آثارها غير طلل بال يخبر الرجال باندحار الظلمة أمام النور

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون أخبار الايام

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون فى الناى والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين والفل

رأيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملن الاغمار ويترنمن بالاناشيد أوحتها الغبطة والمسرة

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوهة باكليل من الزنبق ومنطقة من أوراق الاشجار الغضة

رأيت الالفة مستحكمة بين الانسان والمخلوقات ، فجماعات الطير والفراش تقترب منه آمنة وسرب الغزلان تنثني نحو الغدير واثقة . نظرت فلم أرَ فقراً ولا ما زيد عن الكفاف ، بل ألفيت الاخاء والمساواة ، ولم أرَ طبيباً ، اذ كلٌّ غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ، ولم أر كاهناً ، لأن الضمير أصبح الكاهن الاعظم ، ولم أر محامياً ، لان الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الالفة والوئام

رأيت الانسان قد علم انه حجر زاوية المخلوقات ، فترفع عن الصغائر ، وتعالى عن الدنايا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس ، فاصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء ، وما ينمقه النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه أنفاس الازهار ، وتعرف معنى أغاني الشحارير والبلابل

من وراء جدران الحاضر — على مرسح الاجيال الآتية رأيت الجمال عروساً والنفس عروسة والحياة كلها ليلة القدر

ملكة الخيال

***

بلغت خرائب تدمر وقد أنهكني المسير . فاستلقيت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلها الدهر وأناخها الى الحضيض فبانت كأنها أشلاء حرب هائلة . وصرت أتأمل بعظائم أجلها وهي مهدومة منقوضةعن صغائر قائمة عامرة

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة شعرت بان في الاثير المحيط بي سيالا يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر فعلا ، فصرت أجرعه محكوماً وأحس بأياد خفية تتسهم عاقلتي وتثقل جفني وتحل نفسي من سلاسلها . ثم مادت الارض واهتز الفضاء. فوثبت مدفوعا بقوة سحرية ، فوجدتني في ريض لم يتخيلها بشر قط مصحوبا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال، يمشين حولي ولا تلمس أرجلهن الاعشاب وينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحب و يضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبية . ولما وصلت الى منفرج قام في وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح

تنسكب منها أنوار بلون قوس القزح وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهن عن ذى قبل ونظرن الى جهة تنبعث منها رائحة المر واللبان ، فاذا بمليكة ظهرت من بين الاغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو العرش واستوت عليه فهبط إذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضا واستقر حول أقدامها بشكل هلال

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا واقف أرى ما لم تره عين انسان وأسمع ما لم تعه اذن بشرى

حينئذ أشارت المليكة بيدها فسكنت كل حركة ثم قالت وصوتها يهز نفسى مثلما تفعل يد الموقع بأوتار عود ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحرى كأنّ للأشياء آذاناً وأفئدةً : « دعوتك أيها الانسى وأنا ربة مسارح الخيال وحبوتك المثول أمامى وأنا مليكة غابة الاحلام فاسمع وصاياى ونادِ بها أمام البشر . قل ان مدينة الخيال عرس يخفر بابه مارد جبار فلن يدخله الا من لبس ثياب العرس . قل : هى جنة يحرسها ملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحب ، هى حقل تصورات انهاره طيبة كالخمر واطياره تسبح كالملائكة وازاهره فائحة العبير فلا يدوسه غير ابن الاحلام . خبر الانس بأنى وهبتهم كأساً يفعمه السرور فهرقوه بجهلهم فجاء

ملاك الظلمة فملأه من عصير الحزن فجرعوه صرفاً وسكروا .
قل : لم يحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست اناملهم وشاحي ونظرت أعينهم عرشي ، فاشعيا نظم الحكمة عقوداً باسلاك محبتي ، ويوحنا روى رؤياه بلساني ، ولم يسلك داتي مراتع الارواح بغير أدلتي ، فانا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكي أعمال الآلهة . قل : أن للفكرة وطناً اسمى من عالم المرئيات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وان للتخيلات رسوماً كائنة في سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعم رجاؤها بما سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا .

وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية وقبلت شفتي الملتهبتين وقالت : « قل ومن لا يصرف الايام على مرسح الاحلام كان عبد الايام »

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرؤيا . ثم مادت الارض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتي هذه الكلمات «ومن لا يصرف الايام على مرسح الاحلام كان عبد الايام »

▸◂◆▸◂◆▸◂

يا لائمي

* * *

دعنى يالائمى ووحدتى . استحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ويوثق قلبك بحنو الام ويربط فؤادك بعواطف الابن ان تتركنى وحالى

خلنى وشأنى وأحلامى واصبر الى الغد فالغد يقضى على بما يشاء

محضتنى النصحَ والنصحُ طيف يسير بالنفس الى مرتع الحيرة ويقودها الى حيث الحياة جامدة كالتراب

لى قلب صغير اريد أن أخرجه من ظلمة صدرى وأحمله على كفى متفحصاً اعماقه ومستحكياً أسراره ، فلا تترصده يا لائمى بنبال مذاهبك مسبباً خوفه واختفاءه ضمن قفص الضلوع قبل ان يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرض عقدته الآلهة عند ما ابتدعته من الجمال والحب

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل وتصاعدت أرواح الآس والمنثور وأنا أريد الانعتاق من لحف الكرى لاسير مع الحملان البيضاء ، فلا تعتقنى يالائمى ولا تخفنى بأسد الغاب وصل الوادى ، لأن نفسى لا تعرف الجزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه

دعنى يالائمى ولا تعظنى ، لأن المصائب فتحت بصيرتى ، والدموع جلت بصرى ، والحزن علمنى لغة القلوب

اعتزل ذكر المحرمات ، فلي من ضميرى محكمة تقضى بالعدل عليّ وتقينى العقاب ان كنت ذا برارة . وتحرمنى الثواب ان كنت من المجرمين

ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعاً أعلامه وسارت الشبيبة نافخة أبواق الفرح فلا تردعنى يالائمى ، بل دعنى اسر . فالطريق مفروشة بالورد والرياحين ، والهواء قد عطرته مجامر المسك

اعتقنى من حكاية المال وقصص المجد . لان نفسى غنية با كتفائها ومشغولة بمجد الالهة

اعفنى من مآتى السياسة وأخبار السلطة ، لأن الارض كلها وطنى وجميع البشر مواطنى

مناجاة

* * *

أين أنتِ الآن يا جميلتي؟ أفي تلك الجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الأطفال ثدي أمها، أم في خدرك حيث أقمت الطهر مذبحاً وقفت عليه روحي وحشاشتي، أم بين كتبك تستزيدين من حكمة البشر وأنتِ غنية بحكمة الآلهة؟

أين أنتِ يا رفيقة نفسي؟ أفي الهيكل تصلين من اجلي، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع اعجابك وأحلامك، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك وتملأين أياديهن باحسانك؟

أنتِ في كل مكان، لأنك من روح الله. وفي كل زمان، لأنك أقوى من الدهر

هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة بأعمال الروح. وتذكرين

أيام جلسنا بظل الأغصان وهي مخيمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة ، هل تذكرين ممرات ومنحدرات مشينا عليها وأصابعك محبوكة بأصابعي احتباك ضفائرك وقد أسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتمي منا بنا . ؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتني ثم قبلتني قبلة مريمية علمتُ منها بأن الشفاه إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها اللسان — قبلة كانت توطئة لتنهيدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه «الله» في الطين فصار انساناً . تلك تهيدة سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا وهناك ستبقى حتى نجتمع بها إلى الأبد . ثم قبلتني وقبلتني وتبنتني وقلتِ والدمعُ يساعدك « ان للاجسام أغراضاً مجهولة ، فهي تفترق لشؤون عالمية وتتباعد لمآرب دنيوية ، أما الأرواح فتظل في قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت ويسير بها إلى الله . اذهب يا حبيبي . لقد انتدبتك الحياة فأطعها ، فهي حسناء تسقي مطيعيها من كوثر اللذة كؤوساً مترعة ، أما أنا فلي من حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل مبارك »

أين أنتِ الآن يا رفيقتي ؟ هل أنتِ ساهرة في سكينة الليل نسماً أحمله دقات قلبي وخفايا جوارحي كلما هب نحوكِ ؟

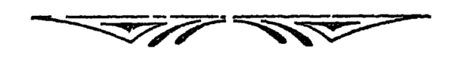
أو أنتِ ناظرة رسم فتاكِ؟ ذلك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه، فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالأمس منفرجة بقربك، والنواح أذبل أجفاناً كانت مكحولة بجمالك، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتكِ

أين أنت يا حبيبتى؟ هل أنتِ سامعة من وراء البحار ندائى وانتحابى، وناظرة ضعفى ومذلتى، وعالمة بصبرى وتجلدى؟ أو ليست فى الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضر متوجع؟ أو لم تكن بين النفوس أسلاك خفية تحمل شكوى محب دنف؟

أين أنتِ يا حياتى؛ لقد احتضنتنى الظلمة وغالبنى الأسى. ابتسمى فى الهواء فانتعش. تنفسى فى الاثير فاحى

أين أنتِ يا حبيبتى أين أنتِ؟

آه ما أعظم الحب وما اصغرنى!



المجرم

***

على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً . فتى قوى الجسم أضعفه الجوع فجلس فى منعطف الشارع مادأ يده نحو العابرين متسولا مستغيثاً بالمحسنين مردداً آيات انكساره شاكياً آلام جوعه

خيم الليل وقد يبست شفتاه وكل لسانه ولم تزل يده فارغة مثل جوفه . فقام إذ ذاك وذهب إلى خارج المدينة وجلس بين الاشجار وبكى بكاء مراً ، ثم رفع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه : « يارب قد ذهبت الى الموسر أطلب عملا ، فطردت لرثاثة اثوابى . وطرقت باب المدرسة . فمنعت لفراغ يدى . ورمت الاستخدام ولو بكفاف يومى . فابعدت لسوء طالعى وأخيراً سعيت متسولا ، فرآنى عبادك يا رب وقالوا هذا قوى نشيط والاحسان لا يجوز على ابن التوانى والكسل . قد ولدتنى أمى بارادتك يارب ، وأنا كائن الآن بكيانك ، فلماذا يمنع الناس الخبز عنى وأنا طالب باسمك ؟

في تلك الدقيقة تغيرت سحنة الرجل اليائس . فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ثم اقتضب من الاغصان اليابسة نبوتاً ضخما وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلا : « طلبت الحياة بعرق الجبين ، فلم أجدها ، فسوف أحصل عليها بقوة ساعدي . وسألت الخبز باسم المحبة ، فلم يسمعني الانسان ، فسأطلبه بأسم الشر واستزيد منه ... »

مرت الاعوام والشاب يقطع الاعناق من أجل الحصول على العقود ، ويهدم هيا كل الارواح ان تصدت لمطامعه . فنمت ثروته وعم بطشه وصار محبوباً من لصوص القوم ومخيفاً لعقلائهم . ثم انتدبه الامير وكيلا عنه في تلك المدينة شأن الامراء باتتقاء ممثليهم

كذا يبتدع الانسان من المسكين سفاحاً باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلا بقساوته



الرفيقة

***

أول نظرة

هى الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هى الشعلة الاولى التى تنير خلايا النفس . هى أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب البشرى . هى آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغابرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالى ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان فى هذا العالم ، وتبيح سرّ الخلود فى العالم الآتى . هى نواة تطرحها عشتروت (١) من العلاء ، فتلقيها العيون فى حقل القلب فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها النفس . أول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذى كان يرف على وجه الغمر ومنه انبثقت السماء والارض . أول نظرة من شريكة الحياة تحاكى قول الله «كن»

---

(١) عشتروت الهة الحب والجمال عند قدماء سكان فينيقيا ولبنان وهي التى يدعوها اليونان افراديّي والرومان فينيس

أول قبلة

هى الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب. هى الحد بين شك يراود القلب فيحزنه و يقين يفعمه فيغبطه. هى مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الانسان المعنوى. هى عروة توثق غرابة الماضى ببهاء الآتي وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها. هى كلمة تقولها الشفاه الاربع معلنة صيرورة القلب عرشاً، والحب مليكا، والوفاء تاجاً. هى ملامسة لطيفة تحاكى مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهداً مستطيلا لذيذاً وأنة خفيفة عذبة، هى بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحى والأحلام. هى ضم زهرة الشقيق الى زهرة الجلنار ومزج أنفاسهما لتوليد نفس ثالث .. واذا كانت النظرة الاولى تشابه نواة ألقتها الهة الحب فى حقل القلب البشرى، فالقبلة الاولى تحاكى أول زهرة فى أطراف أول غصن فى شجرة الحياة

القران

هنا يبتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة شعراً وينشىء من معانى العمر سوراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالى. هنا يزيح

الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من تتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عند ما تعانق ربها . القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهية ثالثة على الأرض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف يبغضه . هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزى لتوليد شراب برتقالى [1] يحاكى لون الشفق عند مجىء الفجر . هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة ، أولها نظرة ، وآخرها اللانهاية . هو انهمال غيث نقى من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة لاستخراج قوى حقول مباركة . . . فاذا كانت النظرة الأولى من وجه المحبوبة مثل نواة ألقتها المحبة فى حقل القلب ، والقبلة الأولى من شفتيها تشابه أول زهرة فى غصن الحياة ، فالقران بها يحاكى أول ثمرة من أول زهرة من أول نواة



(١) اللون البرتقاني يتولد كيماويا من الاحمر والاصفر

بيت السعادة

* * *

تعب قلبي في داخلي فودعني وذهب الى بيت السعادة ، ولما بلغ ذلك الحرم الذى قدسته النفس وقف حائراً ، لأنه لم يرَ هناك ما طالما توهمه . لم ير قوة ، ولا مالاً ، لا ولا سلطة . لم ير غير فتى الجمال ورفيقته ابنة المحبة وطفلتهما الحكمة

وخاطب قلبي ابنة المحبة قائلا : « أين القناعة أيتها المحبة فقد سمعت أنها تشاطركم سكنى هذا المكان ؟ » قالت : « ذهبت القناعة تكرز فى المدينة حيث المطامع ، فنحن لا نحتاجها . السعادة لا تبتغي قناعة . إنما السعادة شوق يعانقه الوصال ، والقناعة سلو يساوره النسيان النفس الخالدة لا تقنع ، لأنها تروم الكمال ، والكمال هو اللانهاية »

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلا : « أرني سر المرأه أيها الجمال

وأرني لانك معرفة » فقال : « هى أنت أيها القلب البشرى وكيفما كنت كانت . هى أنا وأينما حللت حلت . هى كالدين إذا لم يحرفه الجاهلون ، وكالبدر إذا لم تحجبه الغيوم ، وكالنسيم إذا لم تتعلق بأذياله أنفاس الفساد »

واقترب قلبي من الحكمة ابنة المحبة والجمال وقال : « أعطنى حكمة أحملها إلى البشر » فأجابت : « قل هى السعادة تبتدىء فى قدس أقداس النفس ولا تأتى من الخارج »



مدينة الماضي

***

وقفت بى الحياة على سفح جبل الشباب واومأت إلى الوراء . فنظرتُ ، فاذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة فى صدر سهول تتموج فيها الخيالات والابخرة المتلونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها

قلت : ما هذه أيتها الحياة ؟ قالت : هى مدينة الماضى فتأمل !

فتأملت ورأيت —

معابد أعمال جالسة كالجبابرة تحت اجنحة النوم . مساجد أقوال تحوم حولها أرواح صارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة الامل . هيا كل أديان اقامها اليقين ثم هدمها الشك ، مآذن أفكار مرتفعة نحو العلو كأنها أيدى المتسولين ، شوارع أميال منبسطة انبساط النهر بين الربى . مخازن أسرار حرسها الكتمان فسرقتها لصوص الاستعلام . ابراج

اقدام بنتها الشجاعة فثلتها المخاوف. صروح أحلام زينتها الليالى وخربتها اليقظة . أكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران الذات . نوادى معارف أنارها العقل فاظلمها الجهل . حانات محبة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مراسح أعمار مثلت عليها الحياة رواياتها ثم جاء الموت وختم مأساته

تلك مدينة الماضى فهى بعيدة قريبة — منظورة محجوبة

ومشت أمامى الحياة وقالت : اتبعنى فقد طال بنا الوقوف

قلت : إلى أين أيتها الحياة ؟ قالت : إلى مدينة المستقبل . قلت : رفقاً فقد انهكنى المسير وكلمت أقدامى الصخور وهدّت قواى العقبات . قالت : سر فالوقوف جبانة والنظر إلى مدينة الماضى جهالة

اللقـاء

* * *

عند ما أكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم تصاعدت من وادى النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة. وجلست على عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضض من أشعة القمر . فمرّ من أمامها جوق أرواح سابحة فى الفضاء صارخة : « قدوس ، قدوس ، قدوس ابنة مصر مجدها ملء كل الارض »

وتصاعد من أعالى فم ميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتىّ مكتنفاً بأيادى الساروفيم وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الأرواح ومرّت من أمامها هاتفة : « قدوس ، قدوس ، قدوس فتى لبنان مجده ملء كل الدهور »

ولما أخذ المحب يد حبيبته ونظر إلى عينيها حملت الأرياح والأمواج هذه المناجاة إلى جميع الأقطار :

« ما أكمل بهاءك يا ابنة ايسس وما أعظم حبى لك »

« ما أجملك بين الفتيان يا ابن عشتروت وما أكثر شوقى اليك »

« محبتى نظير اهرامك فلا تهدمها الأجيال يا حبيبتى »

« محبتى تحاكى أرزك فلن تغلبها العناصر يا حبيبى »

« حكماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك ويستفسروا رموزكِ يا حبيبتى »

« عظماء الارض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبى »

« ان راحتيكِ منبت خيرات غزيرة تملأ الاهراء يا حبيبتي »

« ان ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسمات منعشة يا حبيبى »

« قصور النيل وهياكله تذيع مجدكِ وأبو الهول يحدث بعظمتك يا حبيبتى »

« الأرز على صدرك وسام شرف أثيل، والأبراج حولك تروى بشدتك ومقدرتك يا حبيبى »

« آه ما أملح محبتك وما أحلى الأمل المناط بارتقائكِ يا حبيبتى »

« آه ما أكرمك خليلاً ، وأوفاك حليلاً ، وما أجمل هداياك وأنفس عطاياك . بعثت إلىّ بالفتيان فكانوا يقظة بعد

نوم عميق . أتحفتني (بالفارس) فغلب ضعف قومي . وحبوتني (بالاديب) فانهضهم (وبالنجيب) فاتملهم ... »

« بعثت اليكِ بالبذور فصيرتها أزهاراً ، وبالانصاب فجعلتها اشجاراً ، فانتِ حقل بكر يحيي الورد والسوسن ويرفع السرو والأرز .... »

« أرى بعينيك حزناً يا حبيبي — أتحزن وأنت بقربي ؟ »

« لي أبناء رحلوا إلى ما وراء البحار وخلفوني حايف بكاء وأليف شوق »

« ليت لي ما يشابه حزنك وتنصرف عني مخاوفي ياحبيبي »

« أتخافين يا ابنة النيل وأنتِ عزيزة الأمم ؟ »

« أخاف من طاغية تقترب مني بحلاوة روغها وتمتلك أعنتي بقوة ساعديها »

« ان حياة الامم يا حبيبتي مثل حياة الافراد . حياة يؤاخيها الامل ، ويقارنها الخوف ، وتحف بها الاماني ، ويرمقها القنوط »

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقاً عاطراً ، فمرت أجواق الارواح منشـــدة : قدوس ، قدوس ، قدوس المحبة مجدها ملء السماء والأرض

مخبآت الصدور

فى صرح فخم واقف تحت جنح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها ، مثلما تتكىء زنبقة ذابلة على أوراقها وتنظر الى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة فى موكب الحرية

مرّت الساعات مرور أشباح الظلمة . وتلك الصبية مستأنسة بدموعها ، مستأمنة بانفرادها ولوعتها ، حتى اذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها ، وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها . وهاك ما كتبت :

« أيتها الأخت المحبوبة !

عند ما يضيق القلب بأسراره وتتقرح الاجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزق من نمو مخبآت الصدور

لا يجـــد المرء غير الـكلام والشكوى . فالحزين ياصديقى يستعذب الشكوى . يجد المحب تعزية بالتشبب ، والمظلوم لذة بالاسترحام .. فانا أكتب اليك الآن لانتى أصبحت كشاعر يرى جمال الاشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمـــال محكوماً بقوة ألوهيته . أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعاً بمرارة جوعه غير راحم فاقة أمه وانكسارها

اسمعى قصتى الموجعة يا أختى وابكى من أجلي ، لان البكاء كالصلاة ، ودموع الشفقة كالاحسان لا تذهب سدى ، لانها متصاعدة من أعماق نفس حية شاعرة ... شاء والدى وجمع بالقران بينى و بين رجل شريف غنى شأن كل والد غنى شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر وضم الشرف الى الشرف هرباً من ذل الايام . فكنت مع عواطفى وأحلامى ضحية على مذبح ذهب أحتقره وشرف موروث اكرهه ، وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التى اذا لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت أقسى من الموت وأمرّ من الهاوية . أنا أعتبر بعلي ، لانه كريم الخلق ، شريف القلب ، يجهد النفس فى سبيل سعادتى ، ويبذل المال لرضاى ، لكننى وجدت تأثير هذه الاشياء كلها لا يساوى دقيقة محبة حقيقية مقدسة . تلك المحبة التى تستصغر كل شيء وتبقى عظيمة .. لا تسخرى بى يا رفيقتى ، فانا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة — هذا القلب المخنوق — هذا

الطائر السابح فى فضاء المحبة — هـــذا الاناء الطافح من خمرة الدهور المعـدة لمراشف الارواح — هذا الـكتاب المطبوعـة فيه فصول السعادة والشقاء، واللذةوالألم، والمسرّة والاحزان، فلا يقرأه إلا الرفيق الحقيقى نصف المرأة المخلوق لها منـــذ الأزل والى الأبد ... نعم صرت أدرى النساء بأغراض النفس وأميال القلب عند ما وجدت أن خيول بعلي المطهمة ومركباته البديعه وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوى نظرة واحدة من عيون ذلك الفتى الفقير الذى جاء هذه الحياة من أجلي وجئت من أجله، ذلك الصابر على مضض البلوى وذل التفريق، ذلك المظلوم عفواً بارادة والدى ، والمسجون بلا إثم فى ظلمة العمر . . اياك ياصديقتى محـاولة تعزيتى . لان لى من مصائبي معزّية هى ادراكى قوة حبى ، ومعرفتي شرف شوقى وحنينى ، فانا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب منى يوماً فيوماً لتقودني الى حيث أنتظر رفيق نفسى والتقى به وأعانقه عناقاً طويلا مقدساً . ولا تلوميني فانا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة . خاضعة لاحكام الشرائع البشرية بتجلد وهدوء ، أكرم بعلي بعـاقلتى ، وأعتبره بقلبى ، وأجـــله بنفسى ، ولا يمكنني أن أهبه كليتى . لان الله اعطاها الى حبيبى قبـل معرفتى

حبيبي . شاءت السماء لحكمة خفية ان أصرف العمر مع رجل خلقت لغيره فانا أنفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة ، ولكن اذا ما انفتحت أبواب الأبدية التحمت بنصف نفسي الجميل ونظرت الى الماضي — وذاك الماضي هو هذا الآن — نظرة الربيع الى الشتاء . وتأملت في حياتي هذه ، مثلما يتأمل في العقبات من بلغ قمة الجبل »

هنا وقفت تلك الصبية عن الكتابة . وحجبت وجهها بيديها . وبكت بكاءً مرّاً . كأن نفسها الكبيرة أبت ان تسلم أقدس أسرارها الى الورق . فأعطتها الى دموع سخينة تجف بسرعة وتمتزج بالاثير اللطيف موطن أنفاس المحبين وارواح الازهار . وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت — « هل تذكرين ياصديقتي ذلك الفتى ؟ هل تذكرين تلك الاشعة المنبعثة من عينيه وتلك الأحزان المرسومة على جبينه ؟ هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى ؟ هل تذكرين صوته المحاكي صدى الوادي البعيد ؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمل في الاشياء بنظرات طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة . ثم يحني رأسه ويتنهد كأنه يخاف ان يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ؟ وهل تذكرين أحلامه وعقائده ؟ هل تذكرين كل هذه الاشياء

فى فتى يحسبه البشر من البشر و يحتقره والدى لانه أسمى من المطامع الترابية وأشرف من ان يرث الشرف عن الجدود ؟ إى يا أختى أنتِ تعلمين انى شهيدة صغائر هذا العالم وضحية الغباوة وترحمين أختاً ساهرة فى سكينة الليل المخيف لتكشف لكِ ستائر صدرها عن أسرار قلبها . أنتِ ترحمين لان الحب قد زار قلبك »

جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى علها تجد فيه أحلاماً ألطف من أحلام اليقظة . . . .



القوة العمياء

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقى ففرّحت القلب . وابتسمت بشفاه الازهار فاسعدت النفس . ثم غضبت ودكت المدينة الجميلة فانست الانسان عذوبة كلماتها ورقة ابتساماتها . قوة عمياء مخيفة نقضت بساعة ما أقامته الاجيال . موت ظلوم قبض باظافره المحددة على الاعناق فسحقها بقساوة . نار آكلة التهمت الارزاق والاعمار ليل قاتم أخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد . عناصر هائلة هبت من مرابضها وقاتلت الانسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت بسرعة ما جمعه بالتأنى . زلزال عنيف حبلت به الارض فتمخضت متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء

جرى كل ذلك والنفس الحزينة ناظرة من بعيد تتأمل وتتألم . تتأمل بمقدرة الانسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة وتتألم مع المصابين الهاربين من النار والدمار . تتأمل باعداء ابن آدم الكامنة له تحت اطباق الثرى وبين دقائق الاثير ،

وتتألم مع الوالدات النائحات والاطفال الجائعين . تتأمل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتألم مع الذين رقدوا بالامس مستأمنين فى منازلهم فاصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة الجميلة بغصات مؤلمة وعبرات مرة . تتأمل بكيفية انقلاب الامل يأساً ، والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتألم مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس والحزن والعذاب

كذا وقفت النفس بين التأمل والتألم تنقاد تارة إلى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس فى آذان السكينة قائلة : أن من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الارض بمكان البغض والحقد والشر فى القلب البشرى تثور وتضج ثم تخمد ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الانسان بدمعه ودمه وأرزاقه

أوقفتنى الذكرى ونكبة هذه الامة تملأ الاسماع أنةً وعويلا ، وصوّرت أمام عينيّ كل ما مر على مرسح الايام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الانسان فى كل ادواره يقيم على صدر الارض البروج والقصور والهياكل ، والارض ترجعها إلى قلبها . رأيت الاشداء يشيدون المبانى القوية ، والنحاتين يختلقون من الصخور صوراً واشباحاً ، والرسامين

زينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت هذه اليابسة تفغر فاها وتبتلع بخشـــونة ما الفته الايادى المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والاشباح، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران ؛ ممثلة دور حسناء مســـتغنية عن الحلى التى يصيغها ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى . . .

على انى وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة ألوهية الانسان واقفة كالجبار تسخر بحماقه الارض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباى وسان فرنسيسكو ترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الارض ما لها فلا نهاية لى



منيتان

***

في سكينة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة واستقر على أعلى مأذنة فيها وخرق بعينيه النيرتين جدران المساكن ورأى الأرواح المحمولة على أجنحة الاحلام والاجساد المحكومة بمفاعيل الكرى

ولما توارى القمر وراء الشفق وتوشحت المدينة بنقاب الخيال سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوي الغني . فدخل ولم تصده الحواجز ، ووقف جنب سريره ثم لمس جبينه فانذعر من غفلته ، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسمت فيه عوامل الحنق والخوف وقال : ابعد عني أيها الحلم المخيف . اذهب أيها الخيال الشرير . كيف دخلت أيها السارق وماذا تروم أيها الخاطف ؟ اذهب فانا رب البيت اذهب وإلا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك إرباً

حينئذ اقترب الموت وبصوت يحاكي الرعد قال : « أنا هو الموت فانتبه واعتبر ! » فأجاب القوي الموسر : « ماذا تريد مني

الآن وماذا تطلب ؟ لماذا جئت وأنا لم أنه أعمالى بعد ؟ ماذا تطلب من الأقوياء نظيرى ، اذهب إلى السقماء . اغرب عنى ولا ترني أظافرك الجارحة و شعرك المسدول كالأفاعى . رُح فقد سئمت النظر إلى جناحيك الهائلين وجسدك البالى » وبعد سكينة مزعجة زاد « لا لا أيها الموت الرؤوف — لا تحفل بما قلته ، فالخوف يوحى ما يحرّمه القلب — خذ مكيالا من ذهبي أو قبضة من أرواح عبيدى واتركنى وشأنى ... لى يا موت مع الحياة حساب لم أنهه ومع الناس مال لم أستوفه . لى بين أمواج البحر مراكب لم تصل إلى الساحل ، وفى قلب الارض غلة لم تنبت . خذ ما شئت من هذه الاشياء واتركنى — لى جوار كالصباح جمالا فاختر منهن ما تريد — اسمع أيها الموت : لى وحيد أحبه وهو عقدة آمالى ، خذه واتركنى خذ ما تشاء . خذ كل شيء واتركنى »

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية وأخذ حقيقته وأعطاها للهواء

سار الموت بين أحياءِ الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً حقيراً فدخله واقترب من سرير عليه فتىً فى ربيع العمر ، وبعد أن تأمل فى وجهه الهادىء لمس عينيه فاستيقظ ولما رأى الموت واقفاً بجانبه جثا على ركبتيه ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت

اودعه كلما فى نفسه من المحبة والشوق : « ها أنذا أيها الموت الجميل — اقتبل نفسى يا حقيقة أحلامى وموضـــوع آمالى ؟ ضمنى يا حبيب نفسى ، فانت رحوم لا تتركنى هنا . أنت رسول الآلهة . أنت يمين الحق ، فلا تتخلّ عنى — كم طلبتك ولم أجدك ، وكم ناديتك ولم تسمع — قد سمعتنى الآن ، فلا تقابل شغفى بالصدود — عانق نفسى يا حبيبى الموت »

وضع الموت إذ ذاك انامله اللطيفة على شفتى الفتى وأخذ حقيقته ووضعها تحت جنحيه

ولما حلق الموت فى الجو نظر نحو هـــذا العالم ونفخ فى الهواء هذه الكلمات : « لن يرجع الى الابدية الا من جاء من الابدية »



على ملعب الدهر

* * *

ودقيقة تتراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحب لهى أسمى وأثمن من جيل ملأه المجد الذى يمنحه الضعيف المسكين للقوى الطامع

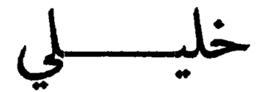
من تلك الدقيقة تنبثق ألوهية الانسان ، وفى ذاك الجيل تنام نوماً عميقاً مكتنفة ببراقع أحلام مزعجة . فى تلك الدقيقة تتحرر النفس من اعباء شرائع الانسان المتباينة ، وفى ذاك الجيل تحبس وراء جدران الاهمال مثقلة بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية الفارض، وذاك الجيل كان القوة العمياء التى هدمت هيا كل بعلبك ودكت مبانى تدمر وسحقت بروج بابل

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوهة على فقدان العدل لهو أجلّ وأفضل من عمر يضيعه الانسان مسروراً على مائدة الشهوات ، مستسلماً لقضاء الانانية . ذاك يوم يطهر القلب بناره ويغمره بنوره ، وذا عمر يخيم عليه

بجنحه القتم ويلحده طى طبقات التراب ذاك يوم كان يوم العـــبر ، ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا عمر انفقه نيرون فى سوق المظالم ووقفه قارون على مذبح المطامع وطمره دون جوان فى قبر الجسديات

وهذه هى الحياة ـ تمثلها الليـــالى على ملعب الدهر نظير مأساة ، وتنشدها الايام كأغنية ، وفى النهاية تحفظها الأبدية بجوهرة ...





* * *

لو علمت ، يا خليلي الفقير ، أن الفاقة التى تقضى عليك بالشقاء هى هى التى توحى اليك معرفة العدل وتبثك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله . قلت : معرفة العدل لان الغنى مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه . وقلت : كنه الحياة ، لان القوى منصرف عنها إلى المجد فافرح اذن بالعدل ، لانك لسانه ، وبالحياة ، لانك كتابها . وابتهج فانت مصدر فضيلة عاضديك وعاضد فضيلة الآخذين بيدك

ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الارزاء التى أصبحت مغلوبها هى تلك القوة التى تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء إلى درجات الاعتبار لقنعت بها ارثاً وبتأثيراتها مهذباً ، وعلمتَ أن الحياة سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وان الحزن حلقة ذهبية تفصل

بين الاستسلام لمآتى الحاضر والتعلل ببهجة الآتي ، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة

خليلي — أن الفقر يظهر شرف النفس ، والغنى يبين لؤمها ، والحزن يلطف العواطف ، والسرور يدملها ، لأن الانسان ما برح يستخدم المال والسرور توصلا للازدياد ، مثلما يفعل باسم الكتاب شراً ينزه عنه الكتاب ، وباسم الانسانيه ما تأباه الانسانية

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية الا من أرقام تدل على الأنانية ومحبة الاستئثار وألفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لاني نظرت فوجدت الالوهية ، وهى الذات المعنوية فى الانسان ، لا تباع بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر ، وتأملت . فرأيت الغنى ينبذ الوهيته ويحرص على أمواله ، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته

أن الساعة التى تصرفها ، أيها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل هى رمز العائلة البشرية المستقبلة — هى عنوان سعادة الاجيال الآتية ، والحياة التى يصرفها المثرى بين الخزائن هى حياة دنية تحاكى حياة الدود فى القبور — هى رمز الخوف

والدموع التى تذريها ، أيها الحزين ، هى أعذب من

ضحك المتناسى وأحلى من قهقهة المستهزىء . تلك دموع تغسل القلب من ادران البغض وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسرى القلب بشواعره — هى دموع الناصرى

أن القوة التى زرعتها ، أيها الفقير ، واستغلها الغنى القوى سوف تعود اليك ، لأن الاشياء ترجع إلى مصـــادرها بحكم الطبيعـــة . والاسى الذى عانيته ، أيها الحزين ، ينقلب فرحاً بحكم السماء

سوف تتعلم الاجيـال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الاحزان



حديث الحب

* * *

فى بيت منفرد جلس فتىً فى صبح الحياة ينظر آناً من النافذة الى السماء المزدانة بالكواكب ، وآونة الى رسم صبية بين يديه . رسم تنعكس خطوطه وألوانه على وجهه . فتظهر علته أسرار هذا العالم وخفايا الابدية . صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذاناً تفقه لغة الأرواح السابحة فى فضاء تلك الغرفة ومبتدعة من مجموعه قلوباً أنارها الحب وأفعمها الشوق

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة أحلام مستحبة أو عام من حياة البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلماً وورقة وكتب :

« يا حبيبة نفسى !

ان الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشرى إلى آخر بواسطة الكلام البشرى المتعارف . لكنها تختار

السكينة سبيلاً بين النفوس . وأنا أشعر بأن سكينة هذا الليل
تسعى بين نفسينا حاملة رسائل أرق من تلك التي يكتبها النسيم
على وجه الماء ، تالية كتاب قلبينا على قلبينا — ولكن مثلما شاء
الله وجعل النفوس فى أسر الاجسام شاء الحب وجعلى أسير
الكلام .... يقولون يا حبيبتى ان الحب ينقلب بالعباد ناراً
آكلة. وأنا وجدت أن ساعة الفراق لم تقوَ على فصل ذاتينا
المعنويتين ، مثلما علمت عند أول لقاء أن نفسى تعرفكِ منذ
دهور ، وان أول نظرة اليك لم تكن بالحقيقة أول نظرة ....
يا حبيبتى ان تلك الساعة التى جمعت قلبينا المنفيين عن العالم
العلوى هى من ساعات قليلة تدعم اعتقادى بأزلية النفس
وخلودها — فى مثل تلك الساعة تكشف الطبيعة القناع عن
وجه عدلها المتناهى والمظنون به ظلماً . . .

هل تذكرين يا حبيبتى ذاك الروض ، حيث وقفنا وكلانا
ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لى أن
محبتك لى لم تنبثق من الشفقة عليّ ؟ تلك النظرات التى علمتنى
أن أقول لذاتى وللعالمين ان العطاء الذى يكون مصدره العدل
لهو أعظم من الذى ينبثق من الحسنة ؟ وان المحبة التى تبتدعها
الظروف تشابه مياه المستنقعات

أمامى ياحبيبتى حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة. حياة تؤاخي ذكرى الانسان الآتى وتستدعى اعتباره ومحبته. حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لانى مؤمن بكونك قادرة على اظهار القوة التى أودعنى الله إياها متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة ، مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظل محبتى لى وللاجيال ، وتبقى منزهة عن الانانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بكِ »

وقام الفتى ومشى بتمهل فى تلك الغرفة ثم نطر من النافذة ورأى القمر قد طلع من وراء الافق وملأ الفضاء أشعة لطيفة فرجع وكتب فى تلك الرسالة :

« سامحينى يا حبيبتى فقد ناجيتك بضمير المخاطب وأنت نصفى الجميل الذى فقدته عند ما خرجنا من يد الله فى آن واحد — سامحينى ياحبيبتى »



الحيوان الأبكم

« وفي نظرات الحيوان الأبكم كلام تفهمه نفس الحكيم »
(شاعر هندي)

فى عشية يوم تغلبت فيه تخيلاتي على عاقلتى مررت بأطراف أحياء المدينة ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطت دعائمه ولم يبق منه سوى أثر يخبر عن هجر طويل ويدل على زوال محزن. فرأيت كلباً يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف واستحكمت العلل بهيكله المهزول، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها أشباح الذل وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس، فكأنه درى أن الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة المهجورة البعيدة عن الأولاد مضطهدى الحيوان الضعيف. فصار يرمقها بعين آسفة مودّعة. فاقتربت منه على مهل واذا لو عرفت النطق بلسانه فأعزيه فى شدائده وأبدى له شفقة فى بؤسه، ولما دنوت منه خافنى وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال مستنجداً بقوائم شلتها العلة وراقبها الفناء. وإذ لم يقوَ

على النهوض نظر إليّ نظرة فيها مرارة استرحام وحلاوة استعطاف ـ نظرة فيها انعطاف وملامة ـ نظرة قامت مقام النطق ، فكانت أفصح من لسان الانسان وأبلغ من دموع المرأة. ولما تلاقت عيناى بعينيه الحزينتين تحركت عواطفي وتمايلت تأثيراتي فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجساداً من كلام متعارف بين البشر . نظرات مفادها : « كفى ما بي يا هذا . وكفى ما عانيت من اضطهاد الناس ، وما قاسيت من ألم الأمراض ، إمض واتركني وسكينتي أستمد من حرارة الشمس دقائق الحياة فقد هربت من مظالم ابن آدم وقسوته والتجأت إلى رماد أكثر نعومة من قلبه واختبأت بين خرائب أقل وحشة من نفسه . اذهب عني ، فما أنت إلا من سكان أرض ما برحت ناقصة الأحكام ، خالية من العدل . . . أنا حيوان حقير ، لكنني خدمت ابن آدم وكنت في منزله مخلصاً ووفياً ، وفي رفقته متربصاً وجاسوساً . كنت شريكاً في أحزانه ومغبوطاً في أفراحه ، متذكراً أيام بعده ، مترحاً عند مجيئه . وكنت أكتفي بفتات مائدته وأسعد بعظم جرّده بأضراسه . ولكن لما شخت وهرمت وانشبت الأمراض في جسمي أظافرها نبذني وأبعدني عن داره وصيرني ملعبة لصبيان الازقة القساة ، وهدفاً لنبال العالي ، ومحطاً لرحال الاقذار . أنا . يا ابن آدم ، حيوان ضعيف ، لكني وجدت نسبة كائنة بيني وبين

الكثيرين من اخوانك البشر ، الذين ، إذا ما ضعفت قواهم ، قلَّ رزقهم وساءَ حالهم . أنا مثل جنود يحاربون عن الوطن فى شبيبتهم ويستثمرون الارض فى كهولتهم ، حتى إذا ما جاء شتاء الحياة وقل نفعهم أبعدوهم ونسوهم . أنا مثل امرأة تجملت صبية لتفريج قلب الشبيبة ، وسهرت زوجة فى الليالى لتربية الاطفال ، وتعبت امرأة لايجاد رجال المستقبل ، ولكن لما شاخت وعجزت أصبحت نسياً منسياً وأمراً مكروهاً . . آه ما أظلمك يا ابن آدم وما أقساك ! »

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم وقلبي يفهم ونفسي تتراوح بين شفقتي عليه وتصوراتي بأبناء جلدتي . ولما اغمض عينيه لم أشأ ازعاجه . فذهبت . . .



السلم

* * *

سكنت العاصفة بعد ان لوت الاغصان وأحنت الزروع وبانت النجوم كأنها بقايا البرق المتكسرة على اديم السماء ، وسكنت تلك الحقول ، كأن حرب العناصر لم تكن

فى تلك الساعة دخلت الصبية مرقدها وجثت على سريرها وبكت بكاء مراً ثم تصاعدت زفراتها وتجسمت انفاسها الحارة بهذه الكلمات : « رده الىّ يا رب ، فقد جفت دموعى وذابت حشاشتى . أرجعه أيها الروح القاضى بحكمة تسمو عن نهى الانسان ، فقد جفاني التجلد وتحكم بى الاسى . خلصه من بين مخالب الحرب المحددة — أنقذه من الموت القاسي وارحمه فتىً ضعيفاً جنت عليه قوة القوى فسلبني اياه — تغلبى أيتها المحبة على عدوتك الحرب وخلصي حبيبى فهو من ابنائك — إبتعد عنه أيها الموت ودعه يرنى أو تعال وخذني اليه »

فى تلك الدقيقة دخل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها الهيجاء أحرفاً قرمزية واقترب من الصبية وحياها بدمعة

وابتسامة ثم أخذ يدها ووضعها على شفتيه الملتهبتين ، وبصوت تآلفت فيه عوامل الحب الجارح ومفاعيل اللقاء المفرح قال : « لا تجفلي فقد أتى من تبكين من أجله — افرحى فقد أعاد اليك السلم من سرقه الحرب وأرجع اليك فتى الانسانية ما سلبه ابن المطامع . كفكفى الدمع يا حبيبتى وابتسمى ، لأن للشعوب ايمة ترحم متى عمت قساوة ايمة الشعوب ـ لاتعجبى من اياى حياً ، فللحب وسم يراه الموت فينصرف ، ويتوسمه العدو فيتقهقر ـ أنا هو ، فلا تحسبينى خيالاً جاء من مرتع المنايا ليزور مربعاً يسكنه جمالك والسكون . لا تخافى فانا حقيقة سلمت من بين الاسنة والنار لتخبر الناس بغلبة الحب على الحرب ـ أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك »

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقداه عند الوداع

ولما جاء الصباح وقف الاثنان فى وسط الحقل يتأملان فى جمال الطبيعة ، وبعد سكينة فيها من الاحاديث ما فيها نظر الجندى نحو المشرق الاقصى وقال لحبيبته : « انظرى الشمس طالعة من الظلمة »

الشـــــاعر

* * *

حلقة توصل بين هذا العالم والآتي . منهل عذب تستقى منه النفوس العاطشه . شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعه تطلبها القلوب الجائعة . بلبل يتنقل على اغصان الكلام وينشد انغاماً تملأ خلايا الجوارح لطفاً ورقة . غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاظم وتتصاعد وتملأ وجه السماء وتنسكب لتروى أزهار حقل الحياة . ملك بعثته الالهة ليعلم الناس الالهيات . نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه مكيال ملأته زيتاً عشتروت الهة الحب وأشعله أپولون اله الموسيقى

وحيد يرتدى البساطة ويتغذى اللطف ويجلس على أحضان الطبيعة ليتعلم الابتداع ويسهر فى سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زراع يبذر حبات قلبه فى رياض الشواعر . فتنبت زرعاً خصيباً تستغله الانسانيه وتتغذى به

هذا هو الشاعر الذى تجهله الناس فى حياته وتعرفه عند ما

يودع هذا العالم ويعود إلى موطنه العلوى. هذا الذى لا يطلب من البشر الا ابتسامة صغيرة والذى تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة والناس تبخل عليه بالخبز والمأوى

فالى متى أيها الانسان - إلى متى يا أيها الكون تقيم من الفخر بيوتا للالى جبلوا اديم التراب بالدماء وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن أنفسهم سلاماً ووداعة ؟ وحتى مَ تعظم القتلة والذين أحنوا الرقاب بنير الاستعباد وتتناسى رجالا يسكبون نور الاحداق فى ظلمة الليل ليعلموك أن ترى بهاء النهار ويصرفون العمر بين مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة

وأنتم يا أيها الشعراء ، يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الأجيال قسراً عن قساوة الاجيال وفزتم باكليل الغار غصبا عن أشواك الغرور وملكتم فى القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا أيها الشعراء



يوم مولدي

* * *

كتبت فى باريس فى ٦ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩٠٨

فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى

فى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة . وضعتنى السكينة بين أيدى هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

ها قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدرى كم مرة سار القمر حولى ، لكني لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام

قد سرت خمساً وعشرين مرة مع الارض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلى الاعلى . ولكن هوذا نفسى تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر . فهى كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته . وتترنم بأغاني مده وجزره ، ولا تستطيع ادراكه

منذ خمس وعشرين سنة خطتنى يد الزمان كلمة فى كتاب

هذا العالم الغريب الهائل . وهاءنذا كلمة مبهمة، ملتبسة المعانى، ترمز تارة إلى لا شيء ، وطوراً إلى أشياء كثيرة

أن التأملات والافكار والتذكارات تتزاحم على نفسي فى مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتوقف أمامى مواكب الأيام الغابرة ، وتريني أشباح الليالى الماضية ، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل فى زوايا غرفتى اضمحلال أناشيد السواقى فى الاودية البعيدة الخالية

فى مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الارواح التى رسمت روحى متراكضة نحوى من جميع أطراف العالم ، وتحيط بى مرتلة أغانى الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفى وراء المرئيات ، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة إلى مكان آخر

فى هذا اليوم تنتصب أمامى معانى حياتى الغابرة ، كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الاموات ، وملامح الآمال والأحلام والامانى المتجعدة كملامح الشيوخ . ثم أغمض عينى وانظر ثانية فى تلك المرآة . فلا أرى غير وجهى ، ثم أحدق بوجهى فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم استنطق الكآبة فاجدها خرساء

لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة

فى الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه . والذى أحببته عند ما كنت صبياً ما زلت أحبه الآن . والذى أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة ، فالمحبة هى كل ما استطيع أن احصل عليه ، ولا يقدر أحد أن يفقدنى اياه

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته باسماء عذبة تشببت به سراً وعلناً . ولئن لم أسل الموت ولا نقضت له عهداً فانى صرت أحب الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندى بالجمال ، وتضارعا باللذة ، وتشاركا بانماء شوقى وحنيني ، وتساهما محبتي وانعطافى

وقد أحببت الحرية فكانت محبتى تنمو بنمو معرفتى عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع ادراكى خضوعهم للاصنام المخيفة التى نحتتها الاجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد ، لكننى كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتى الحرية ، واشفق عليهم لانهم عميان يقبلون احناك الضوارى الدامية ولا يبصرون ، ويمتصون لهاث الافاعى الخبيثة ولا يشعرون ، ويحفرون قبورهم باظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل

شيء لأني وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال حتى صارت خيالا شفافاً يمر بين المنازل ، ويقف فى منعطفات الشوارع ، وينادى عابرى الطريق ، فلا يسمعون ولا يلتفتون

وفى الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها ، لكننى لم أجدها قط فى سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هيا كلهم . ولما انفردت بطلبها سمعت نفسى تهمس فى أذنيّ قائلة : « السعادة صبية تولد وتحيا فى أعماق القلب ولن تجيء إليه من محيطه » . ولما فتحت قلبى لكى أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها . لكننى لم أجدها

وقد أحببت الناس ــ أحببتهم كثيراً ــ والناس فى شرعى ثلاثة : واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت الأول لتعاسته . والثانى لسماحته ، والثالث لمداركه

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامى ولياليّ متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتى . مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف

واليوم ، وقد وقفت متذكراً ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة . أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثراً أستطيع أن أومىء إليه أمام وجه الشمس قائلاً : « هذا لي » ولا أجد لفصول أعوامي غلةً سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداءِ ، ورسوم غريبةٍ مبعثرة مملوءَة خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة . في هذه الاوراق المنثورة ، والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفي وأفكاري وأحلامي ، مثلما يدفن الزراع البذور في بطن الارض، ولكن الزراع الذي يخرج إلى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود إلى بيته في المساءِ آملاً راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال ، أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل ، ولا رجاءٍ ، ولا انتظار

والآن . وقد بلغت هذه المرحلة من العمر . فتراءَى لي الماضي من وراءِ ضباب التنهيد والأسى . وبان لنظري المستقبل من وراءِ نقاب الماضي . أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتي . وأرى وجوه الناس واسمع أصواتهم متصاعدةً إلى الفضاءِ ، وأعي وقع أقدامهم بين المنازل . واشعر بملامس أرواحهم وتموجات أميالهم

ونبضات قلوبهم، أنظر فارى الاطفال يلعبون ويذرون التراب بعضهم فى وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطنة باشعة الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالاغصان و يتبسمن كالازهار وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبى الظهور ، متوكئين على العصى ، محدقين بالارض ، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها . اقف بجانب نافذتي وأنظر متأملا بجميع هذه الصور والاشباح الساكنة بسيرها ، المتطايرة بدبيبها فى شوارع المدينة وأزقتها ، ثم انظر متأملا بما وراء المدينه ، فارى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والاودية المنخفضة ، والاشجار النامية ، والاعشاب المتمايلة ، والآزهار المعطرة ، والانهار المترنمة ، والاطيار المغردة ، ثم أنظر إلى ما وراء البرية ،فارى البحر بكل ما فى أعماقه من الغرائب والعجائب . والمدافن والاسرار ، وما على سطحه من الامواج المزبدة ، الغضوبة . المتسارعة ، المتهاونة ، والابخرة المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة ، ثم أنظر متأملا بما وراء البحر ، فارى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ؛ والكواكب اللامعة ،

والشموس والاقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة ، المتنازعة ، المتولدة ، المتحولة . المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدى ، الخاضعة لشروع كلى ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية . انظر وأتأمل بجميع هذه الاشياء من خلال بلور نافذتى فانسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وما سيأتي بعدها من القرون . و يظهر لى كياني ومحيطى بكل ما أخفاه وأعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف فى خلاء أزلى الاعماق ، سرمدى العلو . أبدى الحدود . لكننى أشعر بكيان هذه الذرة — هذه النفس — هذه الذات التى ادعوها « أنا » . أشعر بحرا كها . واسمع ضجيجها . فهى ترفع الآن اجنحتها نحو العلاء وتمتد يداها إلى كل ناحيــــة . وتتمايل مرتعشـــــة فى مثل اليوم الذى ابانها للوجـــــود . وبصوت متصاعد من قدس أقداســـها . تصرخ قائلة :

« سلام أيتها الحياة . سلام أيتها اليقظة . سـلام أيتها الرؤيا سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض . وسـلام أيها الليل المظهر بظلمتك أنوار السماء . ســــلام أيتهـا الفصول . سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الارض . ســــلام أيها الصيف المذيع مجد الشــــمس ، سلام أيهـا الخريف الواهب ثمار الاتعاب وغلة الاعمال . سـلام أيهـا الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة . ســــلام أيتها الاعوام الناشرة ما أخفتــــه

الاعوام . سلام أيتها الأجيال المصلحة ما افسدته الاجيال سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال . سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس . وسلام لك أيها القلب ، لأنك تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع . وسلام لك أيتها الشفاه . لأنك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة »



الطفل يسوع

والحب الطفل

كنت بالامس وحيداً فى هـذا العالم ياحبيبتى . وكانت الوحدة قاسية كالموت . وكنت منفرداً كالزهرة النابتة فى ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودى. ولا أنا أشعر بكيان الحياة . واليوم قد استيقظت نفسى ورأتك منتصبة بقربها . فتهيبت وتهللت . ثم سجدت أمامك . مثلما فعل ذلك الراعى عند مارأى العليقة مشتعلة

كانت بالامس ملامس الهواء خشنة ياحبيبتى . وأشعة الشمس ضعيفة . وكان الضباب يستر وجه الارض وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة . وكنت أتلفت الى كل ناحيـــة فلا أرى غير ذاتى المتوجعة واقفة بجانبى وخيالات الظلمة تهبط وتتصـــاعد حولى كالغربان الجائعة . واليوم قد خف الهواء . وغمر النور الطبيعة . وسكنت

الامواج ، وانقشعت الغيـــوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التى يحدثهـــا جسم العصفور على وجـه البحيرة الهادئة عنـــد مايتحمم بمائها الهادى

كنت بالامس كلمة صامتة فى خاطر الليالى ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الايام ، وقد تم هـــذا كله فى دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة وقبلة . تلك الدقيقـــة ياحبيبتى قد جمعت بين استعدادات نفسى الغابرة وأمانيها الآتية؛ فكانت كالوردة البيضـاء الخارجة من قلب الارض المظلم الى نور النهار . تلك الدقيقة هى من كل حياتى بمنزلة ميلاد يسوع من كل الاجيال لانها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبـة — لانها جعلت الظلمة فى أعماق شـــعاعاً ، والكآبة مرحاً . والشقاء سعادة

ان شعلات المحبة ياحبيبتى تهبط من السماء متموجة بصور متباينة وأشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها فى هذا العالم هو واحد : فالشعلة الصغيرة التى تنير خلايا قلب الانسان الفرد هى كالشعلة العظيمة المشعشعة التى تنحدر من الأعلى وتنير ظلمات الامم جميعها . لان فى النفس الواحدة عناصر وأميالا وعواطف

لاتختلف قط عن العناصر والاميال والعواطف الكائنة فى نفس العائلة البشرية

كان اليهود ياحبيبتى يترقبون مجيء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الامم ، وكانت النفس الكبيرة فى اليونان ترى ان عبادة المشترى ومينرفا قد ضعفت فلم تعد تشبع الارواح من الروحيات . وكان الفكر السامى فى رومه يتأمل فيجد ان ألوهية أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينيس الابدى قد أخذ يقترب من الشيخوخة ، وكانت الامم كلها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسية الى تعاليم مترفعة عن المادة ، وبميل عميق فى الحرية الروحية التى تعلم الانسان ان يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هى الحرية الجميلة التى تخول الانسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل بعد أن يقنع الناس طراً بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم

كان ذلك كله من ألفى سنة ياحبيبتى عند ما كانت عواطف القلب البشرى تحوم مرفرفة حول المرئيات وتخشى الدنو من الروح الكلى الخالد ـ عند ما كان « پان » آله الاحراج يملأ

نفوس الرعاة جزعا وبعل آله الشمس يضغط بأيدى كهانه على قلوب المساكين والضعفاء

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لمحة واحدة تنفرد عن الاجيال ، لانها أقوى من الاجيال . انفتحت شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التى كانت فى البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر وتجسدت وصارت طفلاً بين ذراعى ابنة من البشر ، فى مكان حقير ، حيث يحمى الرعاة مواشيهم من كواسر الليل . . . ذلك الطفل النائم على القش اليابس فى مذود البقر — ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة إلى الروح ، والافكار التائقه إلى الحكمة — ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه الفقيرة قد انتزع باطفه صولجان القوة من المشترى وأسلمه للراعى المسكين المتكىء على الاعشاب بين أغنامه . وأخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس فى زورقه على شاطىء البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من ابولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطياً أمام الابواب ، وسكب الجمال بجماله من ڤينيس وبثه فى روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة

المضطهدين ، وأنزل البعل عن جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذى ينثر فى الحقل البذور مع عرق الجبين

* * *

أو لم تكن عواطفى بالامس كأسباط اسرائيل يا حبيبتى؟ أما ترقبت فى سكينة الليل مجىء مخلص ينقذني من عبودية الايام ومتاعبها ؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة ؟ أما سرت على طرق الحياة مثل صبى ضائع بين الاحياء المهجورة . أو لم تكن نفسى كالنواة المطروحة على الصخرة : لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحييها

قد كان ذلك كله بالأمس يا حبيبتى عند ما كنت أحلامى تدب فى جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور — عندما كان اليأس يلوى أضلعى والضجر يقومها

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة . بل فى لحظة واحدة تنحى عن سنى حياتى، لانها أجمل من سنى حياتي هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى . ونظر الىّ من وراء عينيك . وتكلم معى بلسانك . ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة ينبثق الحب وحل فى أعشار قلبى ... هذا الحب العظيم الجالس فى هذا

المذود المنزوى فى صدرى — هذا الحب الجميل الملتف بأقمطة العواطف — هذا الرضيع اللطيف المتكىء على صدر النفس قد جعل الاحزان فى باطنى مسرة واليأس مجداً والوحدة نعيماً . هذا الملك المتعالى فوق عرش الذات المعنوية قد أعاد بصوته الحياة لأيامى الميتة ، وأرجع بملامسه النور الى أجفاني المقرحة بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالى من لجة القنوط

***

كان كل الزمن ليلا ياحبيبتى ، فصار فجراً ، وسيصير نهاراً لأن أنفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء وما زجت ثانويات الأثير . وكانت حياتى حزناً ؛ فصارت فرحاً وستصير غبطة ، لأن ذراعى الطفل قد ضمتا قلبي وعانقتا نفسى

مناجاة ارواح

* * *

استيقظى ياحبيبتى ! استيقظى لان روحى تناديك من وراء البحار الهائلة ، ونفسى تمد جنحيها نحوك فوق الامواج المزبدة الغضوبة . استيقظى ، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين وعانق النوم أرواح البشر ، فبقيت وحدى مستيقظاً ، لان الشوق ينتشلنى كلما أغرقنى النعاس . والمحبة تدنينى اليك عندما تقصينى الهواجس . قد تركت مضجعى يا حبيبتى خوفاً من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ورميت بالكتاب ، لان تأوهى قد أباد السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عينى . استيقظى ! استيقظى ياحبيبتى واسمعينى

— هاءنذا يا حبيبى ! قد سمعت نداءك من وراء البحار وشعرت بملامس جناحيك . فانتبهت وتركت

مخدعی وسرت على الاعشاب ، فتبللت قدمای وأطراف ثوبی من ندى الليل . ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبي !

ـ تكلمي ياحبيبتي ! ودعی أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوی من أودية لبنان . تكلمي ، فلا سامع غيرى ، لان الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات الى أوكارها ، والنعاس أسكر سكان المدينة وبقيت وحدی صاحياً

ـ قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان ياحبيبي !

ـ قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة ياحبيبتي !

* * *

ـ قد رقد سكان القرى فی أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الاحلام ياحبيبي !

ـــ قد أناخت احمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم . فارتموا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم ياحبيبتي !

* * *

ـــ قد سرت فى الاودية خيالات الاجيال الغابرة . وحامت على الروابي أرواح الملوك والانبياء ، فاتجهت فكرتى نحو مسارح الذكرى وأرتنى عظائم الكلدانيين ونخامة الاشوريين ونبالة العرب

ـــ قد سرت فى الازقة أرواح اللصوص القاتمة . وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعى الشهوات ، وجرت فى منعطفات الشوارع أنفاس الامراض ممزوجة بلهاث المنايا فازاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتنى مكاره صادوم وآثام عاموره .

* * *

ـ قد تمايلت الاغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادى ورددت على مسامعى نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغانى الموصلي

ـ قد ارتعشت نفوس أطفال الحى وأقلقهم الجوع . وتسارعت تنهدات الامهات المضطجعات على أسرة الهم

واليأس ، وأراعت أحلام العـوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مراً وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندباً ورثاءً

* * *

ـ قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بانفاس الارز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً إلى الطيران

ـ قد تصاعدت روائح الازقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهـواء

* * * *

ـ ها قد جاء الصـباح يا حبيبي وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام وفاضت الاشـعة البنفسجية من وراء الجبل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس وملأت الاثير نداءً مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فارجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية . قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي

رؤوس الاعشاب المتلمعة بقطر الندى ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح

ـ قد جاء الصباح يا حبيبي وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكف النهار الثقيلة ، فازيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب ، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهبت التعساء إلى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت فى جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً إلى عراك هائل مهلك ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوى الدواليب وعويل البخار وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوى الضعيف ويستأثر الغنى الظلوم بأتعاب الفقير المسكين

* * *

ـ ما أجمل الحياة هنا يا حبيبي ، فهى مثل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة

ـ ما أقسى الحياة هنا يا حبيبتى ، فهى مثل قلب المجرم المفعم بالاثم والمخاوف

أيتها الريح

☆☆☆☆☆

تمرين آناً مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتنا وهي ساكنة .

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنبسطين مع السهول والمروج . ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترفع مع الأقوياء المتشامخين

في الخريف تنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار ، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها

لكن ـ أنادبة كنت أيام الخريف ، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد أن عرّيتها من ملابسها ؟ أغاضبة كنتِ أيام الشتاء ، أم راقصة حول قبور الليالى المكلسة بالثلوج ؟ أعليلة كنت أيام الربيع ، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبهه من رقاده ؟ أميتة كنت أيام الصيف ، أم هاجعة فى قلوب الأثمار وبين جفنات الكروم وعلى بيادر القش ؟

* * *

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ومن الروابي أرواح الأزهار وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التى تحتمل أوجاع الحياة بسكينة . وبسكينة تلتقى بأفراحها

أنت تهمسين فى أذن الوردة أسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم . وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر

أنت تبطئين هنا ، وتتسارعين هناك ، وتتراكضين هنالك ، ولكنك لا تقفين قط . وهكذا تفعل فكرة الانسان التى تحيا بالحركة وتموت بالسبات

أنت تكتبين على وجه البحيرة اشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعل الشعراء المترددون .

من الجنوب تجيئين حارّة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفقين شديداً كالبغضاء . أمتقلبة كالدهر ؟ أم أنت رسول الجهات تبلغين إلينا ما تأتمنك عليه ؟

تمرين غاضبة فى الصحارى فتدوسين القوافل بقساوة ثم تلحدينها بلحف الرمال . فهل أنت أنتِ ذلك السيال الخفى المتموج مع أشعة الفجر بين أوراق الغصون ، المنسل كالاحلام فى منعطفات الاودية حيث تمايل الازهار شغفاً بك وتتخاصر الاعشاب سكراً من أنفاسك ؟

تثورين ظلماً فى البحار فتحركين ساكن أعماقها ، حتى إذ أزبدت حنقا عليك فتحت فاها لجةً ولقمتها من السفن والارواح لقماً مرةً . فهل أنت أنتِ ذلك المحب المتلاعب حنواً بغدائر الاطفال المتراكضين حول المنازل ؟

* * *

إلى أين تتسارعين بأرواحنا وتنهداتنا وأنفاسنا ؟ إلى أين تحملين رسوم ابتساماتنا ؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة ؟ هل تذهبين بها إلى ما وراء الشفق — إلى ما وراء

هذه الحياة ؟ أم تجرينها فريسة إلى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها يميناً وشمالاً حتى تضمحل وتختفي ؟

في سكينة الليل تبيح لك القلوب أسرارها، وعند الفجر تحلك العيون اهتزازات أجفانها. فهل أنتِ ذاكرة ما شعرت به القلوب وما رأته العيون؟

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه، واليتيم حرقته والحزينة تأوهاتها. وطي أثوابك يضع الغريب حنينه، والمتروك لهفته، والساقطة عويل نفسها. فهل أنتِ حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ أم أنتِ كهذه الارض لا نودعها شيئاً إلا وتحوله إلى جسمها ؟

أسامعةٌ أنتِ هذا النداء، وهذا العويل، وهذا الضجيج، وهذا البكاء ؟ أم أنتِ كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الاكف فلا يلتفتون وتتصاعد نحوهم الاصوات فلا يسمعون ؟
أسامعةٌ أنتِ يا حياةً للسامع؟



رجوع الحبيب

* * *

ما جاء الليل حتى انهزم الاعـــداء وفى ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين الوية الفخر ، منشدين اهازيج النصر على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء الوادى

أشرفوا على الجبة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب ، فظهرت تلك الصخور الباسقة متشامخة مع نفوس القوم نحو العلاء ، وبانت غابة الارز بين تلك البطاح كانها وسام مجد أثيل علقته الاجيال الغابرة على صدر لبنان

ظلوا سائرين واشعة القمر تلمع على أسلحتهم ، والكهوف البعيدة تتقلد تهاليلهم ، حتى إذا ما بلغوا جبهة العقبة أوقفهم صهيل فرس واقف بين الصخور الرمادية كانه قد نحت منها . فاقتربوا منه مستطلعين ، واذا بجثة هامدة مرتمية على أديم التراب المجبول بنجيع الدماء . فصرخ زعيم القوم قائلا « أروني سيف الرجل . فاعرف صاحبه » . فترجل بعض الفرسان وأحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت أحدهم نحو الزعيم

وقال بصوت أجش : « قد عانقت أصابعه الباردة قبضة السيف بشدة ، فمن العار أن ننزعه »

وقال آخر : « قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاختفى فولاذه »

وقال آخر : « قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحداً »

فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلا : « اسندوا رأسه ودعوا أشعة القمر ترينا وجهه » ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد — وجه فارس قوي يتكلم بلا نطق عن شدة رجوليته وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار . لكنه لم يبق لينشد مع رفقاه أهازيج النصر . ولما أزاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمعة عن وجهه المصفر ذعر الزعيم وصرخ متوجعا : « هذا ابن الصعبي ! فيا للخسارة ! » فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت أن خسارة هذا البطل هي أجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وأيبس ألسنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الابطال ، فالبكاء والنحيب

حريان بالنساء ، والعويل والصراخ خليقان بالاطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً — ذلك السكوت الذى يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة — ذلك السكوت الذى يترفع عن الدموع والعويل ، فيزيد بترفعه البلية هولاً وقساوة — ذلك السكوت الذى يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلى اعماق اللجج — ذلك السكوت الذى يعلن مجيء العاصفة ، وان لم تجيء كان هو أشد فعلاً منها

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا اين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار فى صدره كأنها أفواه مزبدة تتكلم فى هدوء ذلك الليل عن همم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مستفحصا فوجد دون سواه منديلا مطرزاً بخيوط الذهب مربوطاً حول زنده . فتأمله سراً وعرف اليد التى غزلت حريره والأصابع التى حاكت خيوطه . فستره بالأثواب وتراجع قليلاً إلى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة — تلك اليد التى كانت تزيح بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشى منديل عقدت أطرافه أصابع محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعاً ببسالته فصرع وسوف يرجع إليها محمولا على أكف رفاقه

وبينما كانت نفس الزعيم تتراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال أحد الواقفين : « تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة ، فتشرب أصولها من دمه وتتغذى فروعها من بقاياه ، فتزداد قوة وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه »

فقال آخر : « لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فتظل عظامه محفورة بظل الصليب إلى آخر الدهر ،

وقال آخر : « هنا اقبروه هنا ، حيث جبل التراب بدمائه واتركوا سيفه في يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنسه في هذه الوحدة »

وقال آخر : « لا تلحدوا سيفاً مضرجاً بدم الاعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا، ولا تتركوا في الوعر سلاحاً تعوّد هز الاكف وعزم السواعد بل احملوها إلى ذويه لأنها خير ميراث »

وقال آخر : « تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصري، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا »

وقال : « لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشاً ، فنطوف به في هذا الوادي منشدين أهازيج النصر

فيشاهد اشلاء الأعداء وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر »

وقال آخر : « تعالوا نُعليه سرج جواده ونسنده بجماجم القتلى ونقلده رمحه وندخله الاحياء ظافراً ، فهو لم يستسلم للمنية إلا بعد أن حمّلها من أرواح الاعداء حملاً ثقيلاً »

وقال آخر : « تعالوا نودعه لحف هذا الجبل ، فيكون له صدى الكهوف نديما ، وخرير السواقى مؤنسا ، فترتاح عظامه فى برية يكون فيها وقع أقدام الليالى خفيف الوطأة »

وقال آخر : لا تغادروه ههنا ، ففى البرية وحشة مملة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله إلى جبانة القرية ، فيكون له من أرواح جدودنا رفاق تناجيه فى سكينة الليل وتقص عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم »

فتقدم الزعيم اذ ذاك إلى وسط رجاله واسكتهم باشارة . ثم قال متنهداً : لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط رأسه . ففى ذلك الحى نفس ساهرة تترقب قدومه — نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الاسنة . فلنعيده اليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبلة من جبينه »

حملوه على المناكب مطأطئ الرؤوس ، خاشعى العيون مشوا بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الارض ويصهل من وقت إلى آخر . فتجيبه الكهوف بصداها ، كأن للكهوف أفئدة تشعر مع البهيم بشدة الضيم والاسى

بين أضلع ذلك الوادى ، حيث أشعة القمر تسترق خطواتها سار موكب النصر وراء موكب الموت وقد مشى أمامهما طيف الحب ساحبا أجنحته المكسورة



جمال الموت

* * *

مرفوعة إلى M. E. H.

دعونى انم ، فقد سكرت نفسى بالمحبة
دعوني أرقد ، فقد شبعت روحى من الايام والليالى
اشعلوا الشموع وأوقدوا المباخر حول مضجعى . وانثروا أوراق الورد والنرجس على جسدى . وعفروا بالمسك المسحوق شعرى واهرقوا الطيوب على قدمى ثم انظروا واقرأوا ما تخطه يد الموت على جبهتى
خلوني غارقاً بين ذراعى الكرى ، فقد تعبت أجفانى من هذة اليقظة
اضربوا على القيثارات ودعوا رنات أوتارها الفضية تمايل فى مسامعى
انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من أنغامها العذبة نقاباً حول قلبي المتسارع نحو الوقوف
ترنموا بالاغانى الرهاوية وابسطوا من معانيها السحرية

فراشاً لعواطفى ثم تأملوا وانظروا شعاع الأمل فى عينى

امسحوا الدموع يارفاقى ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الازهار تيجانهـا عند قدوم الفجر وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود النور بين مضجعى والفضاء ... امسكوا أنفاسكم واصغوا هنيهة واسمعوا معى حفيف أجنحتها البيضاء

تعالوا ودعونى يا بنى أمى ! قبلوا جبهتى بشـفاه مبتسمة . قبلوا شفتى بأجفانكم وقبلوا أجفانى بشفاهكم

قربوا الاطفال الى فراشى ودعوهم يلامسوا عنقى بأصابعهم الوردية الناعمة . قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتى بأيديهم الذابلة المتجعدة . دعوا بنات الحى يقتربن وينظرن خيال الله فى عينىّ ويسمعن صدى نغمة الابدية متسارعة مع أنفاسى

(الانفصال)

ها قد بلغت قمة الجبل فسـبحت روحى فى فضاء الحرية والانعتاق

قد صرت بعيداً بعيداً يا بنى أمى ، فاحتجبت عن بصيرتى جبهات الطلول وراء الضـباب ، وغمرت خلايا الأودية ببحر السكون ، وامحت السبل والممرات بأكف النسيان ، وتوارت المروج والغابات والعقبـات وراء أشـباح

بيضاءَ كغيوم الربيع ، وصفراء كشعاع الشمس ، وحمراءَ كوشاح المساء

قد تضعضعت أغانى أمواج البحر واضمحلت ترنيمة السواقى فى الحقول وسكنت الأصوات المتصاعدة من جوانب الاجتماع ، فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متآلفة مع أميال الروح

(الراحة)

اخلعوا نسيج الكتان عن جسدى وكفنونى باوراق الفل والزنبق

انتشلوا بقاياى من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر البرتقال والليمون ، لا تندبونى يا بنى أمى ، بل أنشدوا أغنية الشباب والغبطة. لا تذرفى الدموع يا ابنة الحقول بل ترنمى بموشحات أيام الحصاد والعصير

لا تغمروا صدرى بالتأوه والتنهيد ، بل ارسموا عليه باصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح

لا تزعجوا راحة الاثير بالتعزيم والتكبين ، بل دعوا قلوبكم تهلل معى بتسبيحة البقاء والخلود

لا تلبسوا السواد حزناً عليّ ، بل ترديوا بالبياض فرحاً معى

ولا تتكلموا عن ذهابى بالغصات ، بل اغمضوا عيونكم
ترونى بينكم الآن وغداً وبعده

مدوني على أغصان مورقة وارفعونى على الاكتاف
وسيروا بي ببطء إلى البرية الخالية

لا تحملوني إلى الجبانة ، لأن الزحام يزعج راحتى ،
وقضقضة العظام والجماجم تسلب سكينة رقادى

احملونى إلى غابة السرو واحفروا لى قبراً فى تلك البقعة
حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق

احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامى إلى
الوادى

احفروا قبراً وسيعاً لكى تجيء اشباح الليل وتجلس
بجانبي

اخلعوا هذه الاثواب ودلونى عارياً إلى قلب الأرض ،
مددونى ببطء وهدو على صدر أمى

اغمرونى بالتراب الناعم والقوا مع كل حفنة قبضة من
بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت على قبرى ممتصة
عناصر جسدى ، وتنمو ناشرة فى الهواء رائحة قلبى ، وتتعالى

رافعة فى وجه الشمس سرائر راحتى ، وتمايلُ مع النسيم
مذكرةً عابرَ الطريق بماضى أميالى وأحلامى

اتركونى الآن يا بنى أمى — أتركونى وحدى وسيروا
باقدام خرساء مثلما تسير السكينة فى الاودية الخالية

دعونى وحدى وتفرقوا عنى بهدوءٍ مثلما تتفرق ازاهر
اللوز والتفاح عند ما تنثرها أنفاس نيسانَ

ارجعوا إلى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن
يأخذه منى ومنكم

اتركوا هذا المكان ، فالذى تطلبونه صار بعيداً بعيداً عن
هذا العالم ...



أغانى

أغنية

* * *

فى أعماق نفسى أغنية لا ترتضى الألفاظ ثوباً . أغنية تقطن حبة قلبي ، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق ، وتحيط بعواطفى كغلاف شفاف ، فلن تنسكب على لساني كالرضاب

كيف أتنهدها وأنا أخاف عليها من دقائق الأثير ؟ ولمن أنشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسى فاخشى عليها من خشونة الآذان

ان نظرت إلى عينى رأيت خيال خيالها وان لمست أطراف أصابعى شعرت باهتزازاتها

أعمال يدى تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم

ودموعي تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عند ما تبعثرها الحرارة

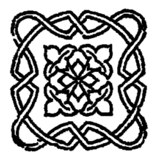
أغنية تنشرها السكينة ويطويها الضجيج وترددها الاحلام وتخفيها اليقظة

هي أغنية الحب أيها الناس ، فأي اسحق ينشـــدها بل أي داود يرتلها ؟

هي أعبق من أنفاس زهرة الياسمين ، فاية حنجرة تستعبدها؟ وأصون من سر العذارى ، فأية أوتار تستبيحها ؟

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ويقرن العواصف بتنهدة الطفل ؟

أي بشريّ ينشد أغنية الآلهة ؟



أغنية الموج

* * *

أنا والشاطىء عاشقان يقربهما الهوى ويفصلهما الهواء.
أجىء من وراءِ الشفق الأزرق كيما أمزج فضة زبدى بذهب رماله، وأبرد حرارة قلبه برضابي

عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبى، فيضمنى إلى صدره. وفى المساءِ أترنم بصلاة الشوق، فيقبلني

أنا لجوجٌ جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلد

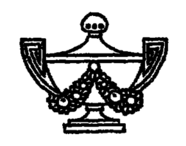
يأتى المدُّ فأعانق حبيبي، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه

كم رقصت حول بنات البحر عند ما كنَّ يطلعنَ من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرجن على النجوم.
وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذات حسنٍ فساعدته على

التأوه والتنهد . وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكاً ولم تبتسم . وكم خلصت من اللجة أجساداً وجئت بها إلى الاحياء . وكم سرقت من الأعماق دراً أهديته إلى ربات الجمال

في سكينة الليل عند ما تعانق المخلوقات طيف الكرى أسهر مترنماً تارة ، متنهداً أخرى — ويحي لقد أتلفني السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة

هذه حياتي وذا ما عشت أصنعه



أغنية المطر

* * *

أنا خيوط فضية تطرحني الآلهة من الأعالي فتاخـــذني الطبيعة وتنمق بي الاودية

أنا لآلىء جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتني ابنة الصباح ورصعت بي الحقول

أنا أبكي فتبتسم الطلول ، واتضع فترتفع الازهار

الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف انهمل. فابرّد غليل هذا وأشفي علة تلك

صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدومي وقوس القزح يعلن نهاية سفرتي — كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبي وتنتهي على اكف الموت الهادىء

أصعد من قلب البحيرة واسير على أجنحة الاثير ، حتى اذا ما رأيت روضة جميـــلة سقطتُ وقبلت ثغور ازاهرها وعانقت أغصانها

فى السكينة اطرق بأناملي اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة

حرارة الهواء تولدنى وأنا أقتـل حرارة الهواء — كذا المرأة التى تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل

أنا تنهدة البحر . أنا دمعة السماء ، أنا ابتسامة الحقـــــل .

كذا الحب — تنهدة من بحر العواطف ودمعة من سماء التفكر وابتسامة من حقل النفس



أغنية الجمال

٭٭٭٭٭٭

أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكل القلب
أنا وردة أفتح قلبي عند فتوّة النهار فتأخذنى الصبية وتقبلنى تضعنى على صدرها
أنا بيت السعادة ، أنا مصدر الفرح ، أنا مبدأ الراحة
أنا ابتسامة لطيفة على شفتى غادة ، يرانى الشاب فينسى نعابه وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة
أنا موحى الشعراء وهادى المصورين ومعلم الموسيقيين .
أنا نظرة فى عين طفل تراها الأم الحنونة فتسجد وتصلي تمجد الله

تجليت لآدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان ، قدّ حبيبته فصيرته حكيماً وشاعراً
ابتسمتُ لهيلانه فخربت تروادة . وتوجتُ كليوبترا فعمّ ؛نس فى وادى النيل

أنا كالدهر أبنى اليوم وأهدم غداً . أنا الله احي وأميت
أنا ارق من تنهدة زهرة البنفسج ، انا أشد من العاصفة .
أنا حقيقة يا أيها الناس — أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أغنية السعادة

***

الانسان حبيبي وأنا حبيبته. اشتاق اليه ويهيم بي، ولكن، أواه! لى فى محبته شريكة تشقينى وتعذبه. وضرة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب وتفرقنا كالرقيب

أطلب حبيبي فى البرية تحت الاشجار وبقرب البحيرات فلا أجده، لان المادة قد غرته وذهبت به إلى المدينة إلى الاجتماع والفساد والشقاء

أطلبه فى معاهد المعرفة وفى هياكل الحكمة فلا أجده لان المادة — تلك التى ترتدى التراب وقد قادته إلى معاقل الانانية حيث يقطن الانهماك

أطلبه فى حقل القناعة فلا أجده، لان عدوتى قد قيدته فى مغائر الطمع والشراهة

أناديه عند الفجر عند ما يتبسم المشرق، فلا يسمعنى، لان كرى الاستمساك قد أثقل عينيه. اداعبه فى المساء إذ

تسود السكينة وتنام الازهار ، فلا يحفل بى ، لان انشغافه بمآتى الغد يشغل ضميره

حبيبى يحبنى — يطلبنى فى أعماله وهو لن يجدني إلا فى أعمال الله . يروم وصالى فى صرح المجد الذى بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة وأنا لا أوافيه إلا فى بيت البساطة الذى بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف . يريد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة وأنا لا أدعه يلثم ثغرى إلا فى الوحدة بين أزهار الطهر ، يبتغى الحيلة وسيطاً بيننا ولا أطلب وسيطاً إلا العمل المنزه — العمل الجميل

قد تعلم حبيبى الصراخ والضجيج من عدوتى المادة وأنا سوف اعلمه ان يذرف دمعة استعطاف من عين نفسه ويتنهد تنهدة استكفاء . حبيبى لى وأنا له



أنشودة الزهرة

* * *

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها . أنا نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر

أنا ابنة العناصر التى حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونومها الخريف

أنا هدية المحبين . . أنا اكليل العرس . انا آخر عطية من حى الى ميت

عند الصباح اتعاون والنسيم على اعلان مجىء النور وفى المساء اشترك مع الطيور بوداعه

أتمايل فى السهول فازينها واتنفس فى الهواء فاعطره . أضم الكرى فترمقنى عيون الليل العديدة وأطلب اليقظة لاحدق بعين النهار الوحيدة

أنا أشرب خمرة الندى وآسمع أغانى الشحارير وأرقص على تصفيق الاعشاب . آنا أنظر الى العلو دائماً كى أرى النور ولا أرى خيالى وهذه حكمة لم يتعلمها الانسان بعد

نشيد الانسان

***

« وكنتم أمواتاً فاحيا كم ثم
يميتكم ثم يحييكم ثم اليه
ترجعون »

(القرآن الشريف)

أنا كنت منذ الازل ، وها انا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس لكياني انقضاء

سبحت فى فضاء اللانهاية وطرت فى عالم الخيال واقتربت من دائرة النور الاعلى وها أنا الآن سجين المادة

سمعت تعاليم كنفوشيوس واصغيت لحكمة برهما وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة وها أنا الآن أغالب الجهل والجحود . كنت على الطور إذ تجلى « يهوه » لموسى ، وفى عبر الاردن فرأيت معجزات الناصرى ، وفى المدينة فسمعت أقوال

رسول العرب وها أنا الآن أسير الحيرة . شاهدت قوات بابل ومجد مصر ، وعظمة اليونان ، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغر بادية فى جميع تلك الاعمال . جالست سحرة عين دور وكهنة أشور وأنبياء فلسطين ، وما برحت أنشد الحقيقة . حفظت الحكمة التى نزلت على الهند واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة العرب ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب وما زلت أعمى لا أرى ، وأصم لا أسمع. احتملت قساوة الفاتحين الطامعين وقاسيت ظلم الحكام المستبدين وعبودية الاقوياء الباغين وما برحت ذا قوة أكافح بها الايام

شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها ولسوف اشيخ وأبلغ الكمال وارجع إلى الله

أنا كنت منذ الازل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر ، وليس لكيانى انقضاء!



صوت الشاعر

١

القوة تزرع فى أعماق قلبى وأنا أحصد وأجمع السنابل وأعطيها أغماراً للجائعين. الروح يحيي هذه الجفنة الصغيرة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظامئين. السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا أنيره وأضعه فى نافذة بيتى من أجل العابرين فى ظلمة الليل. أنا فاعل هذه الاشياء، لانى أحيا بها وأذا منعتنى الايام وغلت يدى الليالى طلبت الموت فالموت أخلق بنبي منبوذ فى أمته وشاعر غريب بين أهله

البشر يضجون كالعاصفة وأنا أتنهد بسكينة، لانى وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر أما التنهدة فتبقى ببقاء الله

البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج وأنا أطلب شعلة

المحبة لاضمها الى صدرى فتأكل ضلوعى وتبرى أحشائي ، لاني ألفيت المادة تميت الانسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالأوجاع

البشر ينقسمون الى طوائف وعشائر وينتمون الى بلاد وأصقاع وأنا أرى ذاتي غريباً فى بلدٍ واحد ، وخارجاً عن أمة واحدة . فالارض كلها وطنى والعائلة البشرية عشيرتى ، لانى وجدت الانسان ضعيفاً ومن الصغر ان ينقسم على ذاته ، والارض ضيقة ومن الجهل أن تتجزأ الى ممالك وإمارات

البشر يتكاتفون على هدم هيا كل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد وأنا وحدى واقف فى موقف الرثاء على انى أصغى ، فاسمع من داخلي صوت الأمل قائلا : « مثلما تحي المحبة القلب البشرى بالاوجاع كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة. فالاوجاع والغباوة تؤول الى لذة عظيمة و معرفة كاملة، لان الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلا تحت الشمس »

٢

أحن الى بلادى لجمالها وأحب سكان بلادى لتعاستهم . ولكن اذا ما هبَّ قومى مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبى وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله

ورملوا نساءه وسقوا أرضه دماء بنيه واشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت إذ ذاك بلادي وسكان بلادي

اتشبب بذكر مسقط رأسي واشتاق الى بيت ربيت فيه، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى فى ذلك البيت وقوتاً من سكانه ومنع مطروداً أستبدلت تشببي بالرثاء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي: ان البيت الذي يضن بالخبز على محتاجه وبالفراش على طالبه لهو أحق البيوت بالهدم والخراب

احب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي واحب بلادي بقسم من محبتي للارض وطني. واحب الارض بكليتي لانها مرتع الانسانية روح الالوهية على الارض. الانسانية المقدسة روح الالوهيــــة على الارض. تلك الانسانية الواقفة بين الخرائب، الساترة قامتهــــا العارية بالاطمار البالية. الذارفة الدموع السخينة على وجنتيها الذابلتين. المنادية ابناءها بصوت يملأ الاثير أنة وعويلا وأبناؤها مشغولون عن ندائهــا بأغاني العصبية، منصرفون عن دموعها بصقل السيوف. تلك الانسانية جالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون. وان سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزاها في شدائدها قال القوم. اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف

الانسانية روح الالوهية على الارض. تلك الالوهيـــة السائرة بين الأمم المتكلمة بالمحبة المشيرة الى سبل الحياة والناس

يضحكون مستهزئين بأقوالها وتعاليمها . تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصابره . وسقراط فسمموه ، والتي سمعهـــا اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها امام الناس والناس لا يقدرون على قتلهم ، لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية أقسى من القتل وأمر

ولم تقوَ اورشليم على قتل الناصري ، فهو حي الى الأبد . ولا آتينا على اعدام سقراط ، فهو حي الى الابد . ولن تقوى السخرية على سامعي الانسانية وتابعي اقدام الالوهية . فسيحيون الى الأبد — الى الأبد

٣

أنت أخي وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي . وأنت مماثلي لاننا سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة . وأنت رفيقي على طريق الحياة ومسعفي في إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت انسان وقد أحببتك يا أخي

قل عني ما شئت ، فالغد يقضي عليك ويكون قولك قرينة ظاهرة أمام حكمه ، وبينة صائبة لدى عدله

خذ مني ما شئت ، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه وعقار استأثرت به لمطامعي ، فانت خليق ببعضه ان كان يرضيك بعضه

افعل بي ما تشاء ، فلست بقادر على مس حقيقتي . اهرق دمي واحرق جسدي فلا تؤلم نفسي ولن تميتها . كبل يديّ ورجليّ بالقيود وانزل بي الى ظلمة السجون ، فانك لا تقوى على أسر فكرتي ، لانها حرة كالنسيم السائر في فضاء لا حد له ولا مدى

أنت أخي وأنا أحبك .

أحبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فانت وأنا ابنا دين واحد هو الروح ، وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الالوهية المشيرة الى كمال النفس

أحبك لمحبة حقيقتك المنبثقة من العقل العام . تلك الحقيقة التي لا أراها الآن لعماي ، لكني أعتبرها مقدسة لانها من أعمال النفس . تلك الحقيقة التي ستلتقي بحقيقتي في العالم الآتي فتمتزجان كانفاس الازهار وتصيران حقيقة واحدة كلية خالدة بخلود الحب والجمال

أحبك لاني رأيتك ضعيفاً أمام الاقوياء القساة وفقيراً محتاجاً أمام صروح الاغنياء الطامعين . لذلك بكيت من أجلك ومن وراء دموعي رأيتك بين ذراعي العدل وهو يبتسم لك ويستهزىء بمضطهديك

أنت أخي وأنا أحبك

٤

أنت أخي وأنا احبك ـ لماذا اذن تخاصمني
لماذا تأتي بلادي وتحاول اخضاعي ارضاء لأيمة يطلبون المجد بقولك والمسرة بمتاعبك ؟ لماذا تترك رفيقتك وصغارك متبعاً الموت الى ارض بعيدة من اجل قواد يبتغون ابتياع المعالي بدمائك والشرف الرفيع باحزان والدتك ؟ ولكن أمن الشرف الرفيع ان يصرع الانسان أخاه ؟ انرفعن اذن تمثالا لقايين مترنمين بمديح حانان

يقولون يا أخي ان « المحافظة على الذات » قاعدة طبيعية أولية ، ولكنني رأيت الطامعين بالتميز يحببون اليك بذل الذات توصلا الى امتلاك رقاب اخوانك ـ ويقولون ان « حب البقاء » يوجب الاعتداء على حقوق الغير ، وأنا أقول : ان المحافظة على حقوق الغير هي أشرف وأجمل ما تأتي الانسان وأقول أيضاً : ان كان بقائي يوجب فناء سواي فالموت اذن ألذ لدي وأحب ، وان لم أجد من يقتلني شريفاً ومحباً منزهاً تمتعت بتقديم ذاتي بيدي الى الابدية قبل أوان الابدية

الانانية يا أخي أوجدت التنافس الاعمى ، والتنافس ولد العصبية ، والعصبية وضعت السلطة وكانت هذه داعيا للمنازعات والاستعباد ـ النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة على الجهالة

والظلم ، لكنها تنكر تلك السلطة التى تستل من المعادن قواضب وبواتر لتعميم الجهالة والمظالم. تلك السلطة التى هدمت بابل وقوضت أركان اورشليم ودكت مبانى رومية. تلك التى اوجدت سفاكى الدماء والقتلة الذين ينعتهم الناس بالعظماء والكتاب تجل اسماءهم والكتب لا تأبى حفظ معاركهم فى بطونها كما ان الارض لم تأب حملهم على ظهرها حينما كانوا يخضبون محياها بالدماء الزكية ... فما اغراك يا أخى بما يغرك وألهجك بمن يضرك. السلطة الحقيقية هى الحكمة المحافظة على شريعة الطبيعة العامة العادلة. فاين عدالة السلطة اذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها الى بلاد مجاورة وقتلت الالوف ونهبت الربوات ؟ ما قول العصبيين بقتلة يعاقبون من يقتل ولصوص تجازى من يسلب ؟

أنت أخى وأنا أحبك والمحبة هى العدل بأسمى ظواهره ، فان لم أكن عادلا بمحبتى لك فى كل المواطن كنت مراوغاً ساتراً بشاعة الانانية بثوب المحبة البهى



خاتمة

* * *

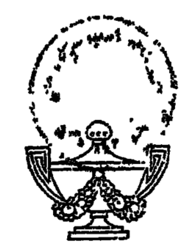
لى من نفسى صديق يعزينى اذا ما اشتدت خطوب الايام ويؤاسينى عند ما تلم مصائب الحياة ومن لم يكن صديقاً لنفسه كان عدوّ الناس ، ومن لا يرَ مؤنساً من ذاته مات قانطاً ، لان الحياة تنبثق من داخل الانسان ولن تجيء مما يحيط به

جئت لاقول كلمة وسأقولها واذا أرجعنى الموت قبل أن الفظها يقولها الغد . فالغد لا يترك سراً مكنوناً فى كتاب اللانهاية

جئت لاحيا بمجد المحبة ونور الجمال وهاءنذا حى والناس لا يستطيعون ابعادى عن حياتى . ان سملوا عينىّ تمتعت بالاصغاء لاغانى المحبة والحان الجمال . وان طمسوا اذنى تلذذت بملامسة اثير ممزوج بانفاس المحبين واريج الجمال . وان حجبوني عن الهواء عشت ونفسى . فالنفس ابنة الحب والجمال

جئت لاكون للكل وبالكل والذى افعله اليوم فى وحدتى يعلنه المستقبل امام النـاس . والذى اقوله الآن بلسـان واحد يقوله الآتى بألسنة عديدة

فهرست





مطبوعاتنا
الأدبية والعلمية والروائية

نوابغ الأدب العصري :

مؤلفات المؤلف

الارواح الشريرة

ثمنها ٨ قروش

مجموعة تحتوي قصصاً واقعية عن أصحاب السلطة ، ورجال الدين ، وعن النظامات الاجتماعية ، والعادات ، والتقاليد ، على ما يراه الناس ويعملونه كل يوم

الأجنحة المتكسرة

ثمنها ٨ قروش

هى رواية عصرية واقعية مفعمة بالحكم والفلسفة والتشريح النفسى

عرائس المروج

ثمنها ٥ قروش

مجموعة تحتوى على ثلاث روايات اتخذ المؤلف فيها مراعى المواشى مراسح لرواياته ورعيان الغنم والبقر أبطالا لها . وكل ذلك فى جهات شمالى لبنان

مؤلفات المنفلوطى

النظرات

٣ أجزاء ثمنه ٦٠ قرشاً

وفيه تظهر شخصية هذا الكاتب العبقرى بأتم وضوح . تبدو فيه أفكاره وآراؤه جلية ظاهرة ونظراته السديدة فى الحياة والفلسفة والأدب والاجتماع

الفضيلة

أو رواية بولس وفرجينى ثمنها ٢٠ قرشاً

وهى من الروايات التى تشف عن العواطف السامية والأدب الراقى

تمثال جميل من حجر ، يؤثر الجزالة على الرقة وله فيهـا آيات ، وعلى الجملة فهو أحد الشعراء الثلاثة بمصر

ذكرى أبى العلاء

للدكتور طه حسـين - ثمنه ١٢ قرشاً

كتاب انتقادى فلسفى على النمط الحديث رمى فيه المؤلف إلى درس أبى العلاء المعرى الفيلسوف العربى الشهير درساً مدققاً على الأسلوب النقدى المصرى

أمين الريحاني

ناشر فلسفة الشرق فى بلاد الغرب

ثمنه ٨ قروش

ويشتمل على مختارات من منثوره ومنظومه وطرف من بليغ حكمه وفسيح خطبه وما قيل فى حفلات تكريمه .

ما وراء البحار

أو النبوغ العربى فى العالم الجديد - ثمنه ٦ قروش

وفيه نخبة مقالات لنوابغ الكتاب فى العالم الجديد أمثال جبران والريحاني وغيرهما

ابنة الرجل المجهول

رواية شيقة ممتعة من تأليف الكاتب الفرنسى الذائع الصيت (بول دى فوا) وتعريب (أدوار زيدان) وقد نالت هذه الرواية نجاحاً باهراً فى فرنسا وترجمت إلى معظم اللغات الحية وذلك لما تضمنته من حوادث غريبة لا تقع تحت حصر، ولما تحمله بين طياتها من مغزى عميق لا يدرك إلا بعد الانتهاء من مطالعتها . وهى تريك إلى أى حد تصل النذالة برجل إذا ما تعلق بامرأة دينها الجشع وشرفها المال وطبيعتها الضغينة . وهى مزينة بالصور الكثيرة ومطبوعة طبعاً متقناً على ورق جيد ومقسمة إلى أربعين فصلاً .

ثمنها ٥ قروش

كلمات الفلاسفة

جمع وتعريب بباوي غالى

ثمنه ٣ قروش

ويشتمل على آراء الفلاسفة العظام وحقائقهم الخالدة التى أناروا بها العقول